الطّرُوحَاتُ المُغَيَّبَةُ فِي مُؤسّسَاتِ الخِطَابِ البَلَاغِيّ العَرَبِيّ المُعَاصِرِ

The Absent Proposals in The Institutions of Contemporary Arab Rhetorical Discourse

أ. م. د. هدى صيهود زرزور العُمريّ
Huda Suhood Zarzor
hudasuhood١٩٧٣١٩٧٣.com@aol.com.

المُلَخَّص :-

بحثُنا الموسومُ بـ((الطُّروحَاتُ المُغَيّبَة فِي مُؤَسّسَات الخِطَابِ البَلَاغيّ العَرَبيّ المُعَاصِر))، مشروعٌ منهجيّ تكامليّ يستندُ إلى مُثاقفات نقديّة في ميدان السّاحةِ البلاغيّة العربيّة، تكمنُ أهميتهُ في بلورةِ منظومةٍ رصديّة، تشخيصيّة لأبرزِ الطّروحات البلاغيّة التي غُيّبت بقصدٍ أو دونهِ، أي دونَ الوعيّ بأهميتها، وبيانِ تداعيات هذا الرصد في وضعِ معالجةٍ إجرائيّة تفترضُ حتميّة النضوج المعرفيّ الذي وصلت إليهِ مفاهيم ومصطلحات ونظريات البلاغة العربيّة المعاصرةِ، عِبر مجسّاتٍ بحثيّة طالت القديمَ، واستندت عليهِ في ربطِ الصّلةِ بينَ الدّراسات التراثيّة، ومناهجِ التحليلِ البلاغيّ المُعاصرةِ، ممّا يؤكّد قيمة تلك الطّروحات ويعضدها بالدليل الحيّ، والبرهان الكاشف عن وجهات نظر متعددةٍ، ورؤىً مشتركة تفترقُ حيناً، وتلتقي في ثوابتها التي لاينكرها العقل الناقد الحصيف .

توخّت الدّراسة إبراز دور التراكم المعرفيّ للخطاب البلاغيّ العربيّ من مناحي عديدة، وفتح ملفّات قضايا بلاغيّة معاصرة أخذت مساراتها في الفكر البلاغيّ منذُ توقّد شرارته الأولى.

وهنا سارَ بنا النهج إلى مناقشةِ آراء وتصورات البلاغيين وما بُني عليها، وما غابَ عنها، وما البدائل للتّغييبِ واللامفكر فيه، معتمدين في ذلكَ على أمّات المصادر والمراجع العربيّة، التي توّجت الدّراسة بجملةٍ من النتائِج والمقترحات، ماجاءَ فيها من نقصٍ فمن نفسي، وما فيها من إضافةٍ فبتوفيقٍ من الله تعالى، نسألُهُ في ختامها القبولَ والسّداد .. والحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

– الكَلِمَاتُ المِفتَاحيّة : الطّروحَاتُ، التّغييب، الخِطَابُ، البَلاغَةُ العَرَبيّة، المُعَاصِرة.

Abstract:

Our research entitled ((The Absent Propositions in the Institutions of Arabic Rhetorical Discourse)) is an integrative methodological project based on critical cultures in the field of Arabic rhetoric. Its importance lies in crystallizing a monitoring and diagnostic system for the most prominent rhetorical propositions that were intentionally or unintentionally absent, and clarifying the implications of this monitoring in developing a procedural treatment that assumes the inevitability of the cognitive maturity reached by the concepts, terms, and theories of contemporary Arabic rhetoric, through research probes that extended to the old and relied on it in linking the connection between heritage studies and contemporary rhetorical analysis methods, which confirms the value of these propositions and supports them with living evidence and evidence revealing multiple viewpoints and shared visions that sometimes diverge. It meets in its constants that the wise critical mind does not deny.

The study sought to highlight the role of the cognitive accumulation of Arabic rhetorical discourse from many aspects, and to open files of contemporary rhetorical issues that have taken their paths in rhetorical thought since its first spark was ignited.

Here, the approach led us to discuss the opinions and perceptions of rhetoricians and what was built on them, what was absent from them, and what are the alternatives to the absence and the unthought of, relying on the mothers of Arabic sources and references, which crowned the study with a set of results and proposals, whatever came in it of deficiency is from myself, and whatever it contains of addition is by the grace of God Almighty, we ask Him at its conclusion for acceptance and success.. Praise be to God, Lord of the Worlds.

- Keywords :- Proposals, Arabic rhetoric, The unthinkable, The absent one, Rhetorical discourse.

المُقَدِّمَة :

بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، نَحْمَدُكَ اللّهُمَّ بِمَا أنتَ أهلٌ لهُ مِن المحَامدِ، ونستهديكَ بما يُزْلِفنا إلى رضاكَ، ونسألُكَ أنْ تصونَ أفئدتنا عن مواردِ التَّهْلُكَة، وأن تُبَلِّغنا بعونك مقاصدَ الخير؛ فإنّك – تعالى جدُّك– وَلِيُّ الحَمدِ والهداية، وأهلُ الصونِ والعونِ، وصلِّ اللّهُمّ عَلى مَن هُو بالمؤمنين رؤوفٌ رحيم، والهادي إلى صراطكَ المُستقيم، وعلى سائرِ رُسلكَ وأنبيائكَ، والآلِ والمصطفين الأخيار .

وَبَعدُ؛ فإنّني وبعدَ تمحيصٍ دقيقٍ، ومتابعةٍ متأنيّة أجتهدتُ فيها لصياغةِ عنوانٍ يوافقُ ما تَضمنتهُ رؤيتي لمفهومِ الطَرحِ الذي سأتناولهُ في بحثي، أخترتُ لفظة (الطّروحَات) بدلَ (الأُطروحات)؛ للدّلالةِ على جَمعِ الجموعِ للرُّؤى والنُّصوصِ البَلاغيّة الُمعاصِرةِ المطروحة للمناقشةِ والبحثِ والتّداولِ، ولنخبةٍ من شيوخِ وأساتذةِ ومفكريّ الدّرسِ البلاغيّ العربيّ؛ ولأنّ غايتي هي الوقوفُ عندَ نماذجَ مختارةٍ من بينِ الكمّ المعرفيّ المُتراكمِ الهائلِ، وبعدَ سّؤالِ ومراجعةِ أستاذِنا الدكتور مُحمّد حُسين آل ياسين– حفظهُ اللهُ وسدّدَ خطاهُ– رئيس المَجمعِ العلميّ العراقيّ (مَجمعُ الخَالدين)، حولَ الأنسبِ في اعتمادِ لفظة (الطّروحات)، أم (الأُطروحات)؛ لمُناسبةِ مضمونِ البحثِ.

وردتني إجابتهُ العلميّة الدَّقيقة، متفضّلاً، مشكورًا، نوجزها بالآتي : ((إن كُنتِ ترومين طَرحَاً لأمثلةٍ مُغيبة بقصد الكُثرةِ من بينِ جمعِ الجموعِ فالأنسبُ لفظ (الطّرُوحَات)).

فجاءَ عنوانُ البحثِ مواكَبةً لِمَا شَهدَتِه الساحة البلاغية العربية منذُ نهايةِ القَرنِ التَّاسع عشر وحتى يومِنا هذا من طروحات معرفيّة في ميدانِ البلاغةِ العربيّة، ممّا يُشكّلُ في مجملهِ مُحاولاتٍ تَنظيريّة حفريّة، ومشروعات تسعى لتَجديدِ البلاغةِ العَربيّة، ابتداءً من منظومتها المصطلحية، واتّجاهاتها، ومنازعها، وأهدافها، وصولاً إلى إعادةِ بلورةِ مضامين الدّرسِ البلاغيّ، وتَنوّع قراءاتهِ السّياقيّة.

ومِن المؤكّدِ أنّ الغايةَ الأولى للباحثِ البلاغيّ الحصيفِ الجّاد هي الإشتغالُ المَعرفيّ المتواصل، والحفرُ في مَكنوناَتِهِ التخصّصيّة لبلوغِ مجالاتٍ بكرٍ خصبةٍ جديدةٍ، والكشفِ عن طروحاتٍ علمية، ورؤىً منهجيّة منجزَة ومبتكرة، ومحاولة إيجادِ سُبلٍ متعددةٍ لقراءتها واستنطاقها، والتّحاورِ معها بُغيةَ الإفادةِ، والتقريرِ والتوثيقِ .

ومِن وسطِ رُكام النتاجات البلاغية التي تتابعت بالظهور في الآونةِ الأخيرة، التقطنا منظومةً انتاجية بلاغية معرفيّة تنشدُ التّجديد وتُنادي بكسرِ الجمودِ والتّقوقُعِ النّمطيّ الفكري، والعدولِ عن السّائدِ المألوفِ بما لايخلّ بثوابتهِ ومرتكزاتهِ، ولا يتعارضُ مع صلاحيتهِ للتطبيقِ كلّ في زمانهِ وحدود مشروعيتهِ .

هذه المنظومة البلاغيّة تعالت فيها الدعوات المناديةِ بضرورةِ تفعيلِ واعتمادِ المشروعِ البلاغيّ الحديثِ وفقَ باكورةٍ تُشكّلُ ما يشبه النزعةَ والتّوجّه الواضحين عندَ كثيرين مِمّن قدّموا عصارةَ مخاضٍ فكري

في مُعتركِ الثّورةِ اللّسانيّة النّقديّة التي غزت افرازاتها المَعارفَ والعلوم الإنسانية، هذهِ النُّخبة من الطّروحات البلاغيّة المُعاصرة لم تنشأ من العَدمِ؛ وإنّما تبلورت بعد تأمّلٍ طويلٍ، وفحصٍ دقيقٍ، واختمارٍ مكتملٍ عندَ روادِ الفكرِ البلاغيّ، وتابعيهم من أساتذةِ الدّرسِ البلاغيّ العربيّ.

إيمانًا منا بما سبقَ، وتمعُّناً في جزئياته، صوَّبنا النظرَ وجهةَ القراءةِ البلاغية الرّصدية الكاشفة عن أبرزِ الطّروحَات المُغيَّبَة في بطونِ المُؤلّفات ومتونِ البلاغيين العرب المُعاصرين، والتي تتضمّنُ نصوصًا فكريّة، ورؤىً إبداعية، صالحة للإستمرار والتطبيق المنهجيّ، وكلّ ذلكَ يستندُ على مُعطيات النّص المطروح والبحث في ماوراء النّص ومقصديتِهِ مباشرةً، واستحضارِ أدواتهِ الناطقة عبرَ تقنيةِ قراءةِ القراءةِ، في مساهمةٍ معرفيّة تطمحُ لأن تكونَ إضافةً حقيقيّة في ميدانِ البلاغةِ العربيّة المُستنيرة، والوقوفِ عندَ مديات الصلاحية المنهجية لتبنّي تطبيقِ بعضِ الطّروحات، استنادًا إلى مبدأِ (تجديد الأصيل نابعٌ منهُ لَا مَفرُوضٌ عليهِ)، فجاءَ وسمنا لبحثنا بما يتناسب وهذا المضمون، ليُصاغَ بعنوانٍ ((الطّرُحَاتُ المُغَيَّبَة فِي مُؤسّسَاتِ الخِطَابِ البَلَاغِيّ العَرَبِيّ المُعَاصِر)).

ارتكزَ البحثُ بعدَ مقدمتهِ إلى تمهيدٍ رصينٍ يُفصحُ عن النّسق المَعرفيّ لِلطّرُوحَات المُغَيَّبَة، والإجابةِ عن المقصديّة من هذا العنوان في خطوةٍ أولى تُلحقُ ببيانِ مَلامحِ الخِطابِ البلاغيّ ومرادفاتهِ الجديدةِ، وتحديدِ مُؤسّساتهِ في البلاغةِ العربيّة، لتكتملَ الخطوةُ الثّانية في مهادنا النّظريّ، أمّا مايوصلنا إلى غايةُ البحثِ ونتائجهِ المرجوّة وتوصياتهِ المُقرّرة، فمحاورُ البحثِ الموسومة بالطرحِ الدّعائِميّ المتتابع عددًا بحسبِ القِدم التأريخي لصاحبِ الطَرحِ، وهذا فرضَ دعامتينِ أساسيتينِ شكّلتا محوري الارتكاز، على النحو الآتي :-

- المِحورُ الأوّل : الطّروحَاتُ التَّأسِيسِيّة .
- المِحوَرُ الثَّاني : الطّرُوحَاتُ البِنَائِيّة التَّكمِيلِيّة.

وبعدَ مناقشةٍ علميّة استعرضت أبرزَ الطروحات المُغيّبة بينَ طيّاتِ الصفحاتِ والمُصنَّفات، سجَّلَ البحثُ في ختامِ رحلتهِ جُملةً من النتائجِ والتّوصياتِ المدعومةِ بمنظومةٍ رصينةٍ مصنّفة من المَصادرِ والمراجعِ، أسألُ اَلله تعالى الذي نفعنا بها، وأعاننا على إيجازِ مضامينها، وتلخيصِ رؤاها أن يُسخرها للقاصدينَ والباحثين الرامين الانتفاع بالعلمِ والعمل بهِ، واللهُ من وراءِ القصدِ وهو الهادي لسواءِ السّبيل .

التَّمهيد :

- أوّلاً : النَسقُ المَعرِفِيّ لِلطّرُحَات المُغَيَّبَة، تَأسِيسٌ مَفهُومِيّ :

كثيرةٌ هي الرّؤى والطّرُوحات المعرفيّة والفكرية في ميدان البلاغة العربية المُعاصرة، والتي انبرت لشرحِ وتفسير وتحليل وتقعيدِ علومها، في محاولاتٍ متتابعة لترصينها وتثبيتِ جذورها، وفي الوقتِ نفسه إعادة بلورتها وصياغتها لتتماشى مع معارف وعلوم العصر والانفتاحِ على الثقافات المتعددة، ومواكبةِ التّقدم الحاصل عند الغرب ،وكل هذهِ الطّروحات تشتركُ في هدفها الكبير

المُتجلّي في تجديدِ الدَّرس البلاغِيّ العَربِيّ القَديم أو مايُطلق عليهِ بـ(البلاغة التقليديّة)، أو (البلاغة المُختَزَلة)، ولايخفى على الباحثِ المتتبع لنشأةِ الدرسِ البلاغيّ العربيّ أطوارَ التحولات المعرفيّة ومستويات الارتقاء المنهجي الذي وصل إليهِ ضمنَ مساراتٍ زمنية متعاقبة شكّلت صروحًا تستلزمُ دخولَ بلاغاتٍ متعددة لبناءِ إمبراطورية البلاغة، في نزعةٍ هيمنت على الوضعِ الراهنِ للبلاغةِ في شكلها العام، وحقولها واتجاهاتها .

وفي إطارِ هذا المسار التّجديديّ للحقلِ البلاغيّ العربيّ تعالت أصوات وخفتت وغابت أُخرى .

وحينَ رجعتُ البَصرَ فيما اخترتهُ عُنوانًا لطرحي هذا، توقفتُ عند تساؤلاتٍ طرحها شيخُ البلاغيين الدكتور محمد أبو موسى في كتابهِ الغَائِبُ في الدِّراسات البَلاغيّة بينَ الوَاقِعِ والمَأمُولِ، ونتيجةَ المتابعةِ المستمرةِ، والبحثِ الدائمِ، والقراءاتِ العميقةِ لكُلّ نتاجٍ قديم وحديث، وجدتُ كمًّا معرفيّاً ضخمًا ((في الدراسةِ البلاغيةِ في السنواتِ الأخيرةِ كتبنا ونكتبُ بحوثاً لدرجتيّ التخصّصِ والعالمية، وبحوثًا للترقية في السُّلّمِ الوظيفيّ، ولو راجعنا عددَ البحوث التي تُكتبُ في الكُلّيات في العالم العربيّ لوجدنا فيضاً لا يُحدُّ، ولا يُعدُّ، ولم تُكتبْ بحوثٌ بهذه الوفرة في تاريخِ التصنيفِ البلاغيّ والسلسلةِ الذهبية المتميزة في تاريخ التصنيف البلاغي، والتي بدأت بعبد القاهر الجُرجانيّ، وانتهت بشراح التلخيصِ استغرقت أربعة قرون، وكل جامعة من جامعاتنا يُكتب فيها كُلَّ عامٍ أضعافُ هذه السلسلة، ثم تلاحظُ أنّ البحثَ البلاغي تراجعَ وتخلَّفَ كثيرًا عن الطموح وعن المأمول، ولم تسعفه هذه الدراسات، ولم تدفعه إلى الواقع الذي يحقق فيه الأمل والطموح، فأي شيء حدث ؟ وكيف كانت كثرة المصنفات في العلم عاجزةً عن دفعهِ إلى الأمام ؟))[1].

لم أجد عندَ شيخنا الإجابة الشافية والكافية على حدِّ قولهِ؛ ولكنّه فسّر ذلك تفسيرًا واقعيًّا منطقيّاً مقبولاً، من ذلك شيءٌ هو الذي أُتيح لي أن أتأكد منهُ ((وأولهُ وأظهره أن البحوث التي تنالُ بها درجة التخصصِ والعالمية لا ينشر منها إلّا القليل، وغالباً لا تقرؤها إلاَّ الّلجانُ العلميّة وبعض الباحثين، وهي حبيسة في المكتبات، والبحث الذي لا يقرأ كأنه لم يُكتب)) [2].

والبحوث التي فوق ذلك وهي التي يكتبها أعضاء هيئة التدريس للترقية أكثرها يُنشر نشرًا محدودًا، وقلّما يُعاد طبعُ ما ينشر، وهذا يعني أنها قليلة الانتشارِ، قليلة الأثر، ومهما كانت جودتها فإن الذي لم يقرأ كأنه لم يكتب، أضِفْ إلى ذلكَ تعليلاً ثانياً هو أنّ : ((أهم أسباب أزمة واقع الدرس البلاغي قلة الكتابة في متن العلم أعني مفرداته، ومكوناته التي هي علوم البلاغة الثلاثة، والتي

(١) الغَائِبُ في الدِّراسات البلاغيّة بينَ الواقعِ والمأمول، أ.د.محمد أبو موسى، ص١٠٨.

(٢) المصدر نفسه.

يستقي منها الجيل، ويربّى عليها، وتتكون في نفسه للبلاغة صورة من خلالها، فيقبل عليها أو ينصرف عنها))[١].

واستكمالاً للتعليلات المُدرجة أعلاه نؤكدّ سبباً ملموسًا تعكسهُ أكثرُ طروحاتِ البلاغة التي تكتبُ للدرجات العلمية المبثوثةِ في طيّاتِ كتبِ التَّفسيرِ، أو في كُتبِ الحديث أو في الشعرِ، أو ما شئت، وقد تغلغلَ البحث البلاغي في علوم كثيرة تراهُ بجوارِ الفقيهِ، وهو يعالجُ بناءَ اللغةِ ليستنبطَ الأحكامَ، وتراهُ بجوارِ الأصوليّ وهُو يشرحُ كيفَ تُستنبطُ الأحكامُ، وتراهُ بجوارِ المُفسّرِ والمُحدّثِ، ودَارسِ الشعرِ إلى آخرِهِ، وكلُّ هذهِ طُرُحَاتٌ خصبةٌ ترى فيها البحثَ البلاغيّ أكثرَ ممّا تراه في كتبِ البلاغةِ؛ لأنَّ هناك ناشبٌ ومتشابكٌ مع النصوصِ، وهَاهُوَ ميدانهُ الحَقّ الذي جاءنا منهُ، وبحوثنا تكتبُ في هذهِ الميادين الخصبةِ ثم تدخلُ المكتباتِ، ويُضربُ على آذانها في هذهِ المكتبات، وقلّما خرجَ منها بحثٌ ليُقرأ، ويبقى متنُ البلاغةِ الذي يعالجُهُ الجيلُ غير محسوسٍ من يومِ أنْ كتبهُ الذين يفصلهم الزمنُ عنَّا بمسافاتٍ بعيدةٍ.

انطلاقًا من هذهِ اللُقطات المنهجية الأكاديمية الصريحة توّجنا بحثنا بعنوان الطّرُوحَات المُغيّبة، قاصدين بذلكَ دلالاتِ المُفردةِ اللّغويّة والاصطلاحِيّة التي تتناسبُ مع أصلِ اللفظةِ في جذرها الثّلاثي (طَرَحَ)، فيُقالُ: ((طَرحَ عليهِ مسألةً : ألقاها، وطرَحَ بين يديهِ الأمر : بادلهُ الشيء وأظهرهُ ورَفعهُ وأعلاه، وخصَّ بعضهم بالطّرحِ البناءَ في إبرازِ مكامنهِ))[٢]، كما تُطلقُ اللفظةُ على مُطارحة الحديثِ ونحوهِ لتدلّ على التّحاورِ البنّاءِ الواسع، وتبادل المُناظرةِ[٣]، ومنه تشتقُ (الأُطرُوحَةُ) : وهي كُلّ ما يُطرحُ للمناقشةِ والبحثِ من مسائل وأفكارٍ وموضوعاتٍ، والجمعُ (أطاريح)، و(أُطروحات) [٤]، كما ترِدُ لفظةُ (الطَّرُوح) بمعنى الكثير أو الشّديد الطّرْح، و(طَرُوحَات) : في صورةِ جمعِ مؤنثٍ سالمٍ لصيغةِ مبالغةٍ على وزن (فَعول)، في حالِ يكون مرفوعًا، والمشتق من الفعل (طَرَحَ)، وهذا المعنى اللغوي يلتقي بالاصطلاحي ليُناسبَ دلالة المقصود بالطّرحِ، ((وهو كُلّ فكرةٍ، أو مسألةٍ، أو مشروعٍ، أو تأليفٍ في أيّ علمٍ يُطرحُ للنظرِ والاجتهادِ والبحثِ والدّرسِ، وفي مَوْضوعٍ عِلْمِيٍّ أَوْ أَدَبِيٍّ وَمُناقَشَتُهُ بِمَنْهَجٍ جَديدٍ،يُقدَّم للبحث))[٥]، فالكثيرُ من المشاريعِ البلاغيةِ

---

(١)الغَائِبُ في الدّراسات البلاغيّة بينَ الواقعِ والمأمول، ص١٠٨.

(٢)لسانُ العَربِ، ابن منظور، مادة (طَرَحَ)، بابُ (الحاء)، فصلُ (الطاء)، ج٢/ ٥٢٨.

(٣)يُنظر : المُعجم الوسيط : ج١/ ٥٥٣-٥٥٤.

(٤)يُنظر : المصدر نفسه.

(٥)معجم المصطلحات الأدبيّة المُعاصرة، عرضٌ وتقديم وترجمة، د.سعيد علوش، ص١٤١.

المطروحةِ في مجملها دفاعٌ عن وجهةِ نظرٍ، أو تصوّر متكامل للمضامين التي يخوضُ فيها المفكر البلاغيّ.

أمّا مقصديّةُ التَّغييبِ فمنطلقهُا الحاجة المُلحّة لتنظيمٍ معرفيّ، ومراجعةٍ وتبسيطٍ لرؤىً وأفكار بُنيت على أُسس وركائز ثابتة، بعضها يحتاجُ إلى إجاباتٍ دقيقة، وبعضها يحتاجُ إلى عرضٍ ونقدٍ فمرادُ التغييبِ ((الكشفُ عن خبايا العلمِ البلاغيّ وإعادة قراءتهِ بصورةٍ منهجيّة متواصلة؛ حتى لايبقى حبيسَ المطويات، رهين الحاجةِ إلى البحث عنهُ، فالقراءات المتعدّدة للنصوص ليست محاولة فكّ مغاليقها فحسب؛ وإنّما هي إعادة انتاجيتها من جديد)) [١]، بما يتناسبُ مع الحاجاتِ الفكريةِ والثَّقافيّةِ وآفاق مواكبتها للرّاهنِ، وتقريبها للأذهان عِبرَ مجسّات التحليل الواعي الصّادِرِ عن مكونات منهجية ونظرية، ونقدية، وفلسفية، ولغوية، لا تتشكل في إطارِ المعطيات التقليدية التي طغتْ على الدراساتِ البلاغيّة العربية؛ بل في إطار منجزات الدراسات المعاصرة في مجالاتها المتنوّعةِ

– ثَانِياً : الخِطَابُ البَلَاغِيّ العَرَبِيّ، مَلَامِحُهُ، مُؤسّسَاتهُ، مُرَادِفَاتُهُ الجَّدِيدَة :

تُعدُّ البَلاغةُ العربيّة بلاغةُ خطابٍ في موضوعها، وقد تجلّى ذلك في أنّ نشأتها كانت من أجل خدمة الخطاب القرآني، إذ أن ((محاولة فَهْم النّص القُرآني فهمًاً صَحيحَاً وإدراكِ مراميهِ هي السبيل إلى التّوصُّل للكثيرِ من أساليبِ الخِطابِ التي عرفتها البلاغةُ العَربيّة، وأستقرّت عليها في مرحلتها الأخيرة))[٢]، وكذلك الخطابات الأدبيّة الأخرى التي تُمثِّلُ خِطابًا جزئيًا داخل خطابٍ كُلّي، هو الخطاب الثقافي لعصرها حيثُ بدا تأثرها وتأثيرها فيه واضحاً للعيان، وأن دارسَ هذا الخطاب هو ذاتهُ متأثرٌ بخطابٍ آخرَ هو الخطابُ الثقافي الذي يعيشهُ، وما يتولّدُ عنهُ من تصوّرات للخطابِ البلاغيّ القديم؛ ذلك أن البلاغةَ اليوم تؤمنُ أن القوانينَ المميزة لكلّ نمطٍ خطابيّ، أو نوعٍ أدبيّ هي أدواتُ بلاغتهِ المؤثرة في المتلقي، وهو ما يصبو إليه التحليل البلاغيّ الجديد، أي أن المحلل البلاغيّ اليوم مدعوٌ للإمساكِ بالآلياتِ والتقنياتِ والحجج والوسائلِ التي أَثَّر بها المتكلم، المؤلف، الخطيب في قارئه، وعدم الوعي باختلاف الخطابين الثقافيين يؤدي إلى مشكلاتٍ من قبيلِ إسقاط الحاضرِ على الماضي، أو اتهامهِ بإغفال ما لم يكن ليهتمَ به، وإغفالِ جوهره الخاص، مع الأخذِ بعينِ الإعتبار أنّ الاحترازات التي قد تجنب الوقوع في مثل هذهِ النتيجةِ ترتكِزُ على الوعيّ باختلاف الخطابينِ التراثيّ والمعاصرِ، ودراسةُ الخطابِ البلاغيّ في سياقهِ الخاصّ، ومحاولةِ استنباطِ خلفياتهِ

(١)اللغة والبلاغة والمِيلادُ الجديد، د.مصطفى ناصف، القاهرة، دار سعاد الصباح، ط١، ١٩٩٢م، ص ٥٣.

(٢)البحثُ البَلاغيّ عندَ العَربِ، تأصيلٌ وتقييم، الدكتور شفيع السَّيد، دار الفكر العربيّ، القاهرة، ط١، ١٩٨٧م، ص١٦.

التحليلية، وطرائقهِ الأسلوبيّة[١]؛ لذلكَ نرصدُ تقريراً واضحاً تفرزهُ دِراساتُ الخطابِ الحديثةِ مفادهُ ارتباطُ الأسلوبِ التعبيريّ بشكلٍ وثيقٍ بالثقافةِ المجتمعيةِ التي نبتَ فيها، فهو ابنُ ظرفهِ الثقافيّ وراهنهِ التاريخيّ، ممَّا يجعلهُ مُجسّداً بقوةٍ لقيمِ المجتمعِ وثقافتهِ. وهو ما يتضحُ عبرَ الحفرِ في الأشكالِ التعبيريّةِ التي تشيعُ في تلكَ اللُّغةِ، إذ يمكنُ بتأمُّلِ إجراءاتِها وآلياتِها الوصولُ إلى المُضمرِ الثقافيّ الذي تحجبهُ أستارُ اللغةِ التأكيد أنّ ((لكُلِّ جنسٍ أدبيّ بلاغتهُ الخاصّة، ولكلِّ موقفٍ اجتماعي تشكلٌ خطابيّ يكونُ حسبهُ؛ لذلك لا بُدَّ أن يكونَ المُحلّلُ البلاغيّ واعياً بأهمية التجنيس، الذي يفرضُ مسار التحليل، وقواعدَ الإنتاجِ والتأويلِ))[٢].

ومِمّا يستدعي الإشارة إليهِ في هذا الموضعِ أنّ كلمة خطاب الداخلة في بنيةِ البلاغةِ الجديدةِ ((تستقي مشروعيتها من طبيعة تصوّر المادة التي تعالجها، والسياق الذي تندرج فيهِ؛ لأن الخطاب البلاغي المعاصر في جميع الثقافات الحية، يتجه إلى اكتساب صيغة كلية شاملة تغطي النص بأكملهِ من منظور علمي متحرك))[٣]، فبقدر ما يتولد في الخطاب الإبداعي من أنساق إنسانية وجمالية، وما تسفرُ عنهُ علومُ الإنسانِ المتناميةِ من معرفةٍ بعالمهِ، فإنَّ الخطابَ البلاغيّ لا مناصَ لهُ من أن يسبحَ فوقها ويقتنص أشكالها.

وإذا كانَ تجديدُ المصطلحات هو الذي يعكسُ حركةَ التطورِ ويضبطُ إيقاعَ المعرفة فإنهُ أشدُّ إلحاحاً بالنسبة لأفقنا في الفكر العربيّ، إذ يمثل ضرورة منهجية لكسرِ طوقِ البحوثِ التاريخية، وتأصيل أنماطِ العلومِ التي رسختها الألسنية الشعرية، والأسلوبية بما أدّت إليهِ من تجديدِ مفاهيم البلاغةِ حتى تقوى على التقاط الأبنية النصية وتحليلها بتقنيات محدثة[٤]، وبهذا تَتعَادَلُ بلاغةُ الخِطابِ مع علمِ النصّ لتكوينِ مقاربةٍ متجددةِ الأجناسِ لخطابٍ إبداعيّ مشروطٌ بإجراءاتٍ حديثة تستقي القديم وتنهلُ من منابعهِ.

إنَّ إنشغالَ الدَّرس البلاغيّ بتحديدِ جمالياتِ النصوصِ وبيانِ دلالاتها، ودراسةِ ظواهرها البلاغية استناداً لمعيار الإيمان بثنائية (الإمتاع، والإقناع)، الناتجة عن التفاعلِ المعرفيّ بين ثنائية: (النص، والمتلقي)، شكّل ضرورةً مُلحّة من ضرورات التّحديث للخطاب البلاغيّ، بنيةً،

---

(١)يُنظر: توظيفُ أدواتِ البَلاغةِ في النّصّ المُعاصر، د.إبراهيم بن منصور التركي، النادي الأدبي، الرياض، ط١، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م، ص٢٢.

(٢)بداياتُ الخطابِ البلاغيّ العربيّ الحديث، نحو بلاغة موسعة، د.محمد مشبال .

(٣)بلاغةُ الخِطابِ وعِلمُ النَّص، د.صلاح فضل، عالم المعرفة، الكويت، ط١، ١٩٩٢م، ص٧-١٠.

(٤)يُنظر: البَلاغةُ العَربيّة قِراءةُ القِراءةِ، د.أحمد يوسف علي، ناشرون الآن وموزّعون، الأردن، ط١، ٢٠١٨م، ص٨١؛ ويُنظر : في البلاغة العربية والأسلوبيات اللّسانية، د.سعد مصلوح، مكتبة الكويت الوطنية، ط١، ٢٠٠٣م،ص١٩٣.

ومضموناً، وطرق أبواب التحديث اللغوي للانتفاع من الكشوفات العلمية على صعيد اللغة وأساليبها وتحليلها وبيان وظائفها وجمالياتها، ليكون أكثر إقناعاً وتقبلاً وتداولاً.

لقد تنبه جمعٌ من الأساتِذة البلاغيين والنقاد المعاصرين، أمثال: (مصطفى ناصف، وعبد الملك مُرتاض، ومحمد أبو موسى، وعبد الحكيم راضي، ومحمد عبد المطلب، وصلاح فضل، وسعد مصلوح، وجابر عصفور، وعبد الله صولة، ومحمد العمري، ومحمد مشبال، وحمادي صمود، ومحمد الوليّ، وسعد العوادي، وعماد عبد اللطيف، وغيرهم كُثر إلى ضرورة طرحِ تحديثات على الدرس البلاغي، وتقديم المُعطى البلاغي بصورة خالية من التعقيد والقولبة، وتجديد الدرس البلاغي من خلال الرؤية إليه بمنظار المستجدات الحديثةِ، كنظريات التواصل، ومعطيات التداولية، ونظريات الخطاب، ومدارس التحليل اللغويّ، وكشوفات السيميائية، ونحو ذلك.

وأجمعوا في طروحاتهم البلاغيّة على أن ما ينبغي أن يحتفظَ به من البلاغة التقليدية إنّما هو فكرة المستمعين التي تنبثق مباشرةً مِن فَهمِ طبيعةِ الخطابِ، فكل قول يوجه لمستمعٍ، وغالبا ما ننسى أن الشيء ذاته يحدث بالنسبة لكل مكتوب، وبينما نتصور الخطاب بالنظر إلى المستمعين فإن غياب القراء مادياً ربما يجعل الكاتب يظن بأنه وحده في هذا العالمِ، بالرغم من أن نصه في الواقعِ مشروطٌ دائماً بهؤلاء الذين يتوجه إليهم، واعياً أو بشكلٍ غيرِ واعٍ[1].

لقد بنتِ المناهجُ الحديثة رؤيتها إلى مسألةِ الإنتاجِ اللّغويّ وفق نظرةٍ معرفيةٍ ثريّة قوامها: ((إن كل أداء لغويّ هو عبارةٌ عن فعلٍ كلاميّ حامل لمقوم مقاصديّ، توجّههُ بطريقة ما تلك الملابسات والظروف التي شكلت المهد الطبيعي والكنف الجوهري لمسألة الإنتاج اللغوي))[2]، وفقاً لهذا المنحى المعرفيّ سارت البلاغةُ العربيةُ؛ إذ بنت دعائمها ومعالمها المنهجية على قاعدة الاهتمام بقضايا المنفعة (الإفادة) التي تنبثق من الأداء اللغوي، وشروط تحقيقها، وهي كلها لوازم وضروريات تغترفُ ماهيتها من الإطار التواصليّ ومكنوناته المرتبطة بقضايا تداولية صريحة وواضحةٍ؛ فإذا استنطقنا الرصيدَ المعرفيّ الذي خلّفهُ التراثُ البلاغيّ العربيّ من القرنِ الثالثِ الهجريّ إلى القرنِ السابع الهجري؛ يُطالعنا ذخرٌ ثمينٌ من الطّروحَاتِ النّيرةِ التي أوردها البلاغيين العرب في مؤلفاتهم، حيث أسهموا من خلالها في إجلاءِ وتفسيرِ ووضع بعض القيود الإستراتيجية

---

(1)يُنظر : بلاغة المقموعين ضمن المجاز والتمثيل في العصور الوسطى، د.جابر عصفور، (مجلة ألف)، دار قرطبة للطباعة والنشر، البيضاء، ط٢، ١٩٩٣م، ص٢٧، ومِن تجلّيات الخطاب البلاغيّ : حمادي صمود، دار قرطاج للنشرِ والتّوزيع، ط١، ١٩٩٩م، ص٧٨، ومجهولُ البَيان، د.محمد مفتاح، دار طوبقال، ط١، ١٩٩٠م، ص١١، والبلاغة والنهضة، مشاريع بناء بلاغة جديدة، محمد مشبال، محمد حسانين، دار الرافدين للطباعةِ والنشر، ط١، ٢٠٢١م، ص٤٦.

(2)البَلاغة والحِجَاج، د.محمد الولي، منشورات فاليه، ط١، ٢٠٢٠م، ص٣٢.

التي ترتقي بالأداء اللغوي نحو القولِ الفصيحِ، والبلاغة الحقيقية بطريقة راقيةٍ وناضجةٍ فجَّرتْ ينابيعَ التلاقيّ المعرفي، والانصهار المنهجيّ بينها وبينَ طروحاتِ وتنظيرات الدرسِ التداوليّ المعاصرِ المختص بتقنين وزرع الأدوات والإجراءات الإستراتيجية المتعلقة بالخطاب الناجح والفعال.

مِن هذا المُنطلقِ، وجَدنَا أن هذا الطّرح المعرفي المُنسجم خليقٌ بمعاينةٍ فكريةٍ، ودراسةٍ علمية منظمة، يمكن أن نسوقَ إشكالياتها بحسبِ نوع الطّرحِ المُقدّمِ للبحثِ تأسيسيّاً، وبنائِيّاً، حيثُ يطرَحُ بعضُ الدّارسين[١] الأسس التي تقوم عليها دراسات تحليل الخطاب ويحددها تحديدًا واحداً بدراسة الظواهر اللغوية في حضورها العينيّ المباشر، بحثاً عمَّا وراءها من أنساقٍ فكريّة أو إيديولوجية (خطابية) هي، وقد توصلوا إلى أنّ المقاربة البلاغيّة للخطاب تقوم على ثلاثة أسس هي: التواصليّة، والحجاجيّة، والأسلوبيّة، و أنّ ذلك أنشأ ثلاث آليّات هي: الحال، والادّعاء، والاختيار.

إنَّ الحديثَ عنِ الخِطابِ بصورتهِ العَامّة يرتبطُ إرتباطاً وثيقاً بمفاهيمِ البلاغةِ حيثُ تتشخّصُ البلاغةُ في الناتجِ عن الخِطابِ الإبداعِيّ سواء أكانَ خِطاباً تخييلياً كما هو الشَّانُ في الشعرِ، وكلِّ الأجناسِ الأدبيّة التي تسعى إلى الاحتفالِ باللُّغةِ، أو كان اقناعيّاً مُتعلّقاً بالخَطابةِ أو الجَّدلِ، أو بأصنافِ القولِ المتنوعة التي تسعى إلى إذعانِ المُتلقّي، وإنشاءِ أو تغييرِ أو تثبيتِ الاعتقاداتِ لديهِ؛ لذلكَ فإنَّ ((مجالَ البلاغةِ يشملُ كلَّ هذهِ الأجناس، ولا ينبغي أن نحصرهُ في قوالبَ جامدة ؛ لأنها أعمُّ من أن تقولبَ في علومٍ ثلاثة تتهالكُ تقعيداتها مع الزمن في منظومةٍ من الشّواهدِ الدّالةِ على صحةِ القواعدِ)) [٢].

واليومَ نجدُ أنَّ الرّهانَ المعولَ على البلاغة بمنظورها الجديد، لا يعود إليها في حد ذاتها؛ لأنَّها منذ وجدتْ كعلمٍ كانت شاملة ومتطورة بغاياتها ومقاصدها، والدليل على ذلك هو أن قراءة البلاغة الجديدة لها، قد أفرزت بُعدَهَا الحجاجيّ، بعدما كانت مرادفاً للخطابةِ، وقد عزَّز هذا الطّرح المفكّر محمد مشبال[٣]، مستنداً على رؤيةٍ مطروحة قائمة مفادها أن بلاغة أرسطو قد تضمنت جناحين، أحدهما تخييلي مَثَّلَهُ كتاب (فن الشعرِ)، والآخر حجاجي مَثَّلَهُ كتابِ (فن الخطابة)، وكلاهما طَبعا تاريخَ البلاغة العربيةِ؛ فهذا قدامة بن جعفر قد تأثر بفن الشعرِ، وذاك الجاحظ الذي

(١)يُنظر : أسئلة البلاغة، د.محمد العمري، أفريقيا الشرق، ط١، ص١٧٠.

(٢)بنية الخطاب البلاغي وسلطة النص الغائب، القراءة بالمماثلة، د.أحمد يوسف، دراسات أدبية ولسانية، العدد السابع، ١٩٩٢م، ص٦٠.

(٣)يُنظر: البلاغة والنهضة، مشاريع بناء بلاغة جديدة، ص١٦٠.

تأثر بالخطابة، وهناك من مزج بينهما من قبيل الجرجاني الذي خصَّ أسرارَ البلاغةِ للتخييل، وجَعلَ دلائلَ الإعجازِ للتّداولِ.

والإشكالُ الذي ينبغي أن تتطرقَ لهُ في هذا المَقام هو المقاربةُ البلاغية اليوم، ومكامِنِ قدرتها على استجلاء الميكانيزمات النصية الجديدة والمتغيرة مع كل نوع خطابي بعينه، والتي مِن المُؤكد أنها قد تجاوزت الأنماط الخطابية التي حددها أرسطو في زمانه، بفعل التطور الذي مارسته الانتاجات الأدبية وغير الأدبية، والتي في نظرنا هي الأخرى تروم الإقناع والتأثير في المتلقي بطريقة أو بأخرى، فالمتأملُ للمشهدِ البلاغيّ المعاصرِ داخلَ الساحة النقدية، يجدها–البلاغة– أخذت على عاتقها نفس الرِّهان، ممَّا أفضى إلى إنتاج قراءات متعددة لكتب أرسطو – بحكم مركزيته في إنتاج الخطاب – وتأويلها بما يناسب الحاضر، مع أن الواقع العَصِي، يفرض إنتاج وتحليل خطابات جديدة، قد لا تكون أدبية بالمرة؛ لكنها بليغة، في مثل الخطاب السياسي الذي يقودُ تحليل مقولاته البلاغية حالياً، إلى معرفة مكنوناته الإيديولوجية المؤثرةِ في إدارةِ شؤونِ شعبٍ مُستقبلاً.

لقد انطوت طرُحَات ورؤى البلاغيينَ العرب المنتمينَ إلى الحقبةِ الزمنية المُعاصرة على تخريجاتٍ وتصوراتٍ متناسقة حولَ اللغة في بعدِها التواصليّ بشكلٍ عامٍ، وإذا كانَ الأمرُ كذلك؛ فهل اعتمدَ البلاغيون العرب في طروحاتهم وتصوراتهم وتوصياتهم المرتبطة بإعداد شروط الخطابِ البلاغيّ الرّاقيّ على معالمَ وأسسَ تنظيرية وإجرائية من شأنها مدّ جسورِ التلاقي مع الطروحات التي تبناها الدرسُ البلاغيّ القديم ؟ وإذا كانَ الأمرُ كذلكَ فمَن هم البلاغيين العرب الذين انطوت تخريجاتهم على هذه المضامين؟ وماهي التنظيرات البلاغية التي تقودنا إلى تلمس بعض الطروحات الجديدة التي غابت بفعلِ تراكميتها المعرفية؟ وهل انطوت علوم البلاغةِ والخِطاب على الحجاج البلاغيّ ؟

هذهِ الأسئلةُ سنُجيبُ عنها في مضامينِ محاورِ البحث الثلاثة المُقَسَّمة على النَّحوِ الآتي:

– المِحْوَرُ الأوَّلُ : الطّرُوحَاتُ التَّأسِيسِيَّة :

طرحت الدّراساتُ البَلاغيّة المُعاصرة تصوّرات ورؤى تنطلقُ من إشكاليات نظريّة مؤبّدة لمفاهيم تأسيسية في منظومةِ الخِطابِ والبلاغة العربية، أخذت ردحاً من الزمن تتردّدُ في أوساطِ العلم بالمفهومِ ذاتهِ، حتى أصبح من السَّذاجةِ بمكان أن يستمرَ الالتزامُ بمدلولاتها القابعة خلفَ تفسيرات مختلفةٍ، نستلهمُ في مكنوناتها طروحات مُغيَّبة عن التأثُّرِ والتأثير في أوساط البلاغة، وفي الوقت ذاتهِ تحتاج إلى إعادة قراءة مثالية تنتظم فيها معرفيّاً للتوصل إلى نسيجٍ يربط فيما بينها، ومن جملتها مارصدناهُ في فِكرِ أساتذةِ البلاغةِ المفكّرين في تحوّلاتها الجذريّة، ومسارات تلك التحوّلات

عبر الأزمنة المُتعاقبة وصولاً إلى روافد جديدة نابعة من هذا التأسيس، ويمثّلُ هذا الطّرح روادُ الخمسينيات من هذا القرن، وهم : د.مصطفى ناصف، د.عبد الملك مُرتاض، د.محمد محمد أبو موسى، د.محمد عبد المُطّلب،د. صلاح فضل، د.عبد الحكيم راضي.

استوقفتنا طروحات هؤلاء المفكّرين البلاغيين المبثوثةِ في صروحهم العلمية، وانجازاتهم التنظيرية، وَرَدَ بعضُها على شكلِ أسئلةٍ مُجاب عليها، والآخر عُرض للتحليل والنّقدِ ؛ لكنّه لم يستكمل مسارهُ، نجمعها تحت مسمّى (الطروحَاتُ التأسيسيّة)، ونوجزها بالآتي :-

١- ما البلاغةُ؟ وما الخِطابُ؟.

٢- بلاغةٌ واحدة أم بلاغات متعددة؟

٣- الخِطابُ البلاغيّ، والخِطاب الإيديولوجي، نسقُ المفاهيم والغايات.

٤- تزَاوجُ البَلاغةِ بالإقناعِ .

- أوّلاً : مَا البَلاغَةُ ؟ وَمَا الخِطَابُ ؟

سؤالٌ طبيّعيٌّ مُقنِعٌ مُثارٌ مُنذُ قُرونٍ كثيرةٍ مَضَت وإلى يومِنا هذا؛ لكنّهُ يختلفُ بإختلافِ وجهات النظر المطروحةِ؛ إذ يحيل متصورُ البَلاغةِ في السياقِ العربيّ على الإبانة والإبلاغِ، الإبانة عن النفس وإبلاغ الرأي والمعتقد، والبليغُ كما تحدّد في نظامنا النقديّ والبلاغيّ القديم ليس من برعَ في الإعراب عمّا في خاطره، أو أحسنَ الترجمَةَ عن نفسه فحسب؛ولكنَّ البليغَ حقّاً من جمعَ إلى ذلكَ مقدرةً على استمالة متلقيه، وإقناع مخاطبيه بالأهداف والمقاصد التي إليها قصَدَ من إنشاء خطابهِ، مما أطلق عليه في المدونة البلاغية القديمة "سياسة البلاغة"، التي هي أصعب من البلاغةِ[١].

نهدفُ في مضمون هذا المحورِ أن نُدلِّلَ عملياً، على أن التأملَ الجّادَ لحقلِ البلاغة، وتبيّن حدودهِ، يمكن أن يثمرَ تصوراً نظرياً جديداً للبلاغة، نؤسّسُ عليهِ ملامحَ منهجٍ، أو مجموعةٍ من المناهجِ التي تقبلُ إجراءاته التطبيق العملي الواضح. وأريد أن أدلّل، عمليًّا على أن التحررَ من الأفكار المَكْرُورةِ عنِ البلاغةِ يمكن أن يكشفَ لنا آفاقًا غَنِيَّةً لتحليلات جديدة. ولأجل هذا ستغامر السطور القادمة بأن تستنبطَ صورةً للبلاغةِ مختلفةً عمّا هو مألوف عند كثير من المُختصّين بالشأنِ، وسنجعل ما نستنبطه ملامحَ منهج نُسَمّيه بالبلاغة الاتصالية، التزاماً بتعريف البلاغة بأنَّها فنُّ الاتّصال الفعّال. أن يُبَرّهِنَ على فعالية الأفكار، وغناها بالتحليلات، وقدرتها على كشف علاقات بلاغية جديدة.

---

(١) يُنظر: البيان والتّبيين، الجّاحِظ، ج١، ص١٢٤.

وممّا أثارَ نقاشنا حولَ هذهِ القضيّة هو طرحٌ مهمٌ للدكتور محمد أبو موسى، مُبيّناً أنّ ((الظاهر الذي لامجالَ للشّكِ فيهِ أن مادةَ البلاغة من ألِفِهَا إلى يائِها مُستخرجةٌ من طرائقِ العربية في الإبانة عن المعاني...، وأي بحث في البلاغةِ ليس مستعملاً في ألسنتنا فالواجبُ حذفه؛ لأننا لا ندرسُ إلَّا ما يفيد، وما لا وجودَ له في ألسنتنا هو زائد غير مفيد)) [١].

وقدَ أكّدَ هذا الطّرح وفسّرهُ تفسيراً منطقياً الدكتور مصطفى ناصف – رحمه الله – حينَ قدَّمَ فهماً للبلاغة العربية القديمة في ضوءِ فكرة الاتصال وهو طرحٌ عميق، قائلاً: ((كانت البلاغة العربية مشغولة بنوع من المصالحة بين المتكلم والمخاطبِ، وكانت مشغولة بتحقيق المآرب واستعمال اللغة استعمالاً ناجحاً، وكانت مشغولة بفن الظرف الذي يشارك في إدراك النجاحِ، كما كانت البلاغة العربية تهتم باللغة لاهتمامها بهذه المصالحة أو تحقيق مآرب الحياة التي تنال من خلال البراعة في القول والأداء، وبعبارة أخرى لم تكن اللغة في نظر البلاغة خالصة لنفسها، ولا كانت مهيمنة على الظرف والمآرب والتوفيق أبحاث اللغة في خدمة الشعور بالترف هذه الخدمة التي لا تنفصل عن الملهاة أو التسلية، كانت أبحاث اللغة في شكل بلاغة تخدمُ –على الأقلِ– عواطف الطبقة الخاصة أو عواطف البطالة والفراغ)) [٢].

ميَّزَ الدكتور مصطفى ناصف البلاغة بوصفها ظاهرة إسلامية قائمة على الصراع بين المعتقدات ويعبر عنها عادةً بمصطلحات : الجدل، والإقناع، والحِجاج؛ لأن البلاغة لاتكون إلا صراعًا وجدلاً، وقد ولد الإسلام بين الناس الصراع والجدل[٣]، وعلى الرغم من وجاهة هذا الرأي فهو مردود؛ لأنه يستعير من البلاغة اليونانية تصورها الذي يلائم ظروفها، ويحاول أن يطبقه على البلاغة العربية التي لها ظروف مخالفة، وتغيب عنها الظاهرة الاجتماعية التي عرفتها البلاغة اليونانية بأكملها. وقد علمنا أن اليونان نشأت البلاغة عندهم في حضن البلاغة القضائية، أما القضاء الإسلامي فلا يقوم على البلاغةِ.

ولا يَتعارضُ هذا الطّرح انتاجيّاً معَ ما جاءَ بهِ الدكتور محمد عبد المُطّلب حينَ كشفَ عن غفلةِ الطروحات الدّاعيةِ إلى حصر البلاغة في معنى الجدل، إذ أن البلاغة العربية لم يكن لها مفهوم واحد؛ لأن تجليات البلاغة في أنواع القول كثيرة مختلفة، يختلف بتنوعها تصورات البلغاء والبلاغيين لها بحسب حاجات أشكال القول البليغ المختلفة[٤].

---

(١)الغَائِب في الدِّراسات البلاغية : ص١٠٥٦.

(٢)اللغة والبلاغة والميلاد الجديد : ص٥٣.

(٣)يُنظر : البلاغة والأسلوب، د.مصطفى ناصف، المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٢م، ص١٥.

(٤)يُنظر : أسلوبية البلاغة، د.محمد عبد المُطّلب، مكتبة الشباب، ١٩٩٣م، ص٩٨.

إن أقصى ما يمكن أن يجد الباحث عن حد لـ"البلاغة" في الموروث العربي، بعض إشارات مبثوثة في تضاعيف المدونات النقدية والبلاغية القديمة مداره على الإيماء إلى أن هناك نظماً، وصياغةً ،وتصويراً، ونسجاً، وتعبيراً، دونما تدقيق للمفاهيم أو ترسيم للحدودِ، أما العثور عن حد للبلاغة في موروثنا العربي يكون جامعاً مانعاً، فإنه يمثل بالنسبة لباحث بلاغي معاصر "أعز ما يطلب"؛ بل "المُنية والأمل"، دونهما خرطُ القتاد، وهو ما عناه حمادي صمود بقوله إن ((عدم التقيد بضوابط التعريف وانحصار مفهومه عندهم في استعراضِ الخصائص التي تحقق البلاغة، سيكون السمة الغالبة على تعريف البلاغة في كل مراحلها، ولن نجد صدى لأي محاولة تروم الوقوف على الحد الجامع المانع))[١]، وهي ظاهرة وقع الانتباه إليها منذ القديم، ويطالِعُنا في الوقتِ نفسهِ الباحث الدكتور عبد الملك مرتاض الذي كرَّس طَرحهُ المفاهيميّ التأسيسيّ للبلاغةِ في الفصل الأول من كتاب (نظرية البلاغة) لتقديم متابعة شاملة لمفهوم البلاغةِ ووظيفتها، حيث نبّه في مستهل متابعته إلى أن الأمم الكبيرة كلها اشتغلت بالبلاغة، وخصوصاً الفلاسفة الإغريق؛ لاسيما أرسطو الذي نظّرَ وابتكر الكثير في الشعريات، والبلاغيات منذ قريب من خمسة وعشرين قرناً، وعلى كثرة المفاهيم البلاغية الدائرة، والتي استعملت في الشرقِ والغرب؛ إلّا أنها ظلت متقاربة، ومتشابهة من وجهة، ومتداخلة، ومتشابكة من وجهة أخرى[٢]، وقد أشار الدكتور عبد الملك مرتاض إلى ما تعرفُ به البلاغة عند الغربيين، إذ أنها كثيراً ما تختصر في فن القول الجميل، وتحدد وظيفتها في أنها ضرب من نظرية الخطاب الـ(ما قبل العلميّ)، الذي يتميز بالسياق الثقافي الذي يعالج فيه، ويرى بعض المنظرين أن البلاغة توجد ما بين فن تركيب الخطابات، ونظرية هذه الخطابات نفسها[٣].

إن "البلاغة" من منظور هذا التصوّر التعميميّ منهجٌ لوصف مختلف أنواع الخطاب الأدبي من زاويةِ البلاغية، التي هي صفة متعالية في الخطاب، تتساوى فيها مختلف المخاطبات الأدبية: الشعر والرواية والمسرح والسينما...، وبدرجات ونسب متفاوتة، وهو ما جعل الأنموذج البلاغي الأسلوبي الذي بلورته طروحات الغربيين يقتربُ من نواح متعدّدة، من أنموذج الشعرية البلاغية الذي بلوره ياكبسون، إذ البحث في خصوصية الخطاب الأدبيّ يرادفُ البلاغةَ العامّة وتحديثاتها المُتشعِّبة.

---

(١)البلاغة العربيّة بلاغةُ وجوه أم بلاغةُ خِطاب، د.حمادي صمود، حوليات الجامعة التونسية، جامعة منوبة، كلية الآداب، العدد ٥٧، ٢٠١٢م، ص٣١٦، ويُنظر : الوجه والقَفَا في تَلازُم التُّراث والحَداثة، حمادي صمود، الدار التونسية، تونس، ط١، ١٩٨٨م، ص٣٥.

(٢)يُنظر: نظريةُ البلاغة: متابعة لجماليات الأسلبة العربية، د.عبد الملك مُرتاض، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، ٢٠١١م، ص٢١٦.

(٣)يُنظر : المصدر نفسه : ص٢٢٣.

ويكشفُ التتبعُ الدقيق في متون المؤلّفات البلاغيّة العَربيّة عن نخبةٍ من الطّروحات المعاصرة المتأثرة بالمناهج الغربية، تحديدًا في مقصديّة البلاغةِ، راميةً إلى سُبلِ البلاغة التطبيقية في خطاب الشرح الأدبي، وباقترانها–البلاغة– بتحليل الخطاب، فهي تنقسم في النقد الحديثِ إلى خطابينِ : خطابٌ موصوف يدلُّ على موضوعِ الخِطابِ، وخِطابٌ واصفٌ يتصلُ بوظيفةِ البلاغةِ من حيث هي نشاط يهتم بوصف الخطاباتِ وتحليلها، وإظهار كيفية تأثيرها بناءً على آليات نظرية مختلفة باختلاف النظريات النقدية القديمة منها، والحديثة. وهذا ما طرحَهُ أحد البلاغيين المحدثين في خضمِ السياق الداعي إلى أن البلاغة–بحسب تعريف أولي حذر : ((هي مجموعة من التقنيات التي تسمح بوصف عملية إنتاج الخطابات، والنصوص، وإعادة بنائها، وبذلك تظلُّ في تصوره إلى حدٍّ ما الأداة الجيدة التي تسعفنا في وصف الكيفية التي ينبني بها النص))[1]، وينعكسُ هذا الطّرح على رؤيةٍ فكريّة مضمونها إخراج البلاغة من دائرة المقولات المجردة القائمة في المقامِ الأوّل على مبدأي التوصيف والتصنيف لوجوه القول وتقنياته الإقناعية، إلى دائرة تأمل الخطابات وتأويلها، يعني أن البلاغة ليست مجرد نظرية تجريدية همها الأساس بناء فهم نسقي للتواصل بمفهومه الجمالي أو الإقناعي، بل هي أيضًا نظرية في تأويل الخطابات التي تنجز في سياقات ملموسة. ويقتضي ربط البلاغة بالخطابات الملموسة توسيع آفاقها النظرية والإجرائيةِ، وعلى الرغم من أن هذا الربط كان قائماً في البلاغة القديمة، إذ ارتبطت منذ البدايات بخطابات مخصوصةٍ؛ إلّا أنه سرعان ما تصدع وتصدعت معه البلاغة التي انحصر دورها في تفتيت الخطابات إلى جملة من المحسنات الأسلوبية المعزولة عن سياقاتها التلفظية؛ بل حتى مع رأب صدع البلاغة في أواسط القرن العشرين، وعودتها إلى الأساس الحجاجي الذي بنيت عليه قديماً، فقد ظل ارتباطها بالخطابات ثغرةً في مايُسمّى اليوم بالبَلاغةِ الجّديدة.

– ثَانِيّاً : الخِطابُ البَلاغِيّ، نسَقُ المَفاهِيمِ والغَايَات :

هناك طُروحَات بلاغيّة نقديّة كثيرةٌ ملحوظة تجري هذا المجرى، يطول بنا الأمر إذا عرضناها، والأفضل أن نتركها لمن يُحِبُّ أَن يَضَعَ لها كتابًا مستقلا يَعْرِضُها ويحللها، وإنما يكفي شرحا للفكرة، أن نُمَثّلَ بالبحوث التي عطفت البلاغة القديمة على الأسلوبية، ومزجت الرؤيتينِ فِي طَرحٍ واحد. فإذا كان عطف البلاغة على النقد يجعل كلمة البلاغة مُرَادِفَةً لكلمة الجماليات، فإن عَطْفَها على الأسلوبية يجعل كلمة البلاغة مُرَادِفَةً لكلمة الأسلوب، فإذا تطلب تحليل الأسلوب رصد التراكيب النحوية فإنَّ علم المعاني ينفع حينئذٍ، وإذا تطلب رصد الصور التخيلية أو المجازية فإنَّ

(1)الوجهُ الغائب، مصطفى ناصف، الهيئة المصرية العامة للكتاب, ١٩٩٣م، ص١٣١.

علم البيان يَسُدُّ مسدها حينئذٍ، وإذا تطلب علاقات صوتية ودلالية فإنَّ علم البديع يُقدِّمُ يد العون حينئذ. وعلى الفور يَتَقَبَّلُ تحليل الأسلوب التحليلات البلاغية القديمة، وتتقبل البلاغةُ أدواتَ البحثِ الحديثِ، مثل: الرصد الإحصائيّ، ويستقيمُ من الخطابِ القديم، والخطابِ الحديث، خطابٌ واحدٌ مازجٌ بينهما. وهذا ماغُيِّبَ في طَرحَ الأُستاذ الدكتور محمد عبد المطلب: ((عندما ننظر إلى البلاغة العربية القديمة ندرك قيامها على جدلية ثنائية من الشكل والمضمون، وهذه الثنائية فرعت مباحثها إلى اتجاهات منها: ما يهتم بالشكلِ، أو لنقل يهتم بالبناء اللفظيّ، وما يتصل به من تناول للفظة المفردة، وما يتصل به من بناءٍ يتناول الجملة، أو ما هو في حكم الجملة، ومنها: ما يهتم بصلة اللفظ بمعناه، وما يترتب على ذلك من خروج هذا المعنى عن حدوده التي وضعت له، أو بمعنى آخر انحراف المعنى عن اللفظ، ثم يمتد هذا الاهتمام ليتناول معنى الجملة وصلتها بما قبلها وبما بعدها، كما في مباحث الفصل والوصل)) [١].

في هذا الطّرح تغييبٌ للعطفِ الإضطراريّ الذي قصدهُ الناقد الكبير ذلك العطفُ الذي يُرجع الخطاب البلاغيّ للخطاب النقدي، المتمثل في ثنائية الشكل والمضمون وبه نفهم أن عطف البلاغة على الأسلوبية وريثٌ طبيعيّ لِما تقدّمَ مِن عَطفِهَا على النَّقدِ الأدبيّ، ممّا شكَّلَ ذلكَ المِهَاد الذي استندت وأسِّست عليهِ بعضُ طروحات المرحلةِ اللّاحِقةِ في تَناولها للخِطابِ البَلاغيّ، تلكَ التي عمّقت منظورها النّقديّ باستثمارِ التَّحوّلات المَنهجيّة المُعاصِرة في مستوى الدَّرس البلاغيّ، وفي تحليلِ الخِطابِ والهرمينوطيقا، ولعلَّ الطّرح الأبرز هنا هو المشروعُ البلاغيّ الذي أثارهُ الدكتور مصطفى الصّاوي الجويني[٢]، وتبعه في الطّرح المنهجيّ الدكتور مصطفى الغَرافيّ[٣]، مُنطلِقاً في مشروعهِ من إعادةِ التأكيدِ على القيمةِ التأسِيسيّة لمفاهيم وأنساق الخِطاب البلاغي المُعاصر.

إن فحص بنية الخطاب البلاغي العربيّ باعتبار نسق المفاهيم و نسق الغايات يكشف عن خطاب إيديولوجي صريح من طوابعه توجّه سجالي يحاور الخصوم متحدياً، ويقيم الحجة ويطلبها، بما يجعل الخطاب البلاغيّ –في المحصلةِ– بنية حجاجية إيديولوجية عمادها الدفاع عن ملفوظ إزاء ملفوظات أخرى. لكن فصل البلاغة العربية عن أنظمة التفكير التي حاطت نشأتها أفضى إلى تغييب الملمح الإيديولوجي الذي وسم تشغيل المقولات البلاغية في السياق العربي.

وقد أماطَ الدكتور محمد مفتاح اللثام عن جدلية البلاغة بالإيديولوجيا في طروحاتٍ علميّة لم تتعرّض للنقدِ والتحليلِ، ومن أبرزِ مارصده البحث، تلك النقلة النوعية التي مازالت متشبثّة بجذور

---

(١)البلاغة والأسلوبية، د.محمد عبد المطلب، الشركة العالمية المصرية للنشر، مصر ،ط١، ١٩٩٤م، ص٢٥٨.

(٢)يُنظر: أوساط البَلاغة العربية، أ.د.مصطفى الجّويني، دار المعرفة الجامعية، مصر، ١٩٩٩م، ص٢٦٥.

(٣)يُنظر: البلاغة والإيديولوجيا، دراسة في أنواع الخِطاب، دار كنوز المعرفة العلمية، ط١، ٢٠١٥م، ص٧٧.

التراث البلاغيّ العربيّ، والتي عبّر عنها من خلالِ ملحظهِ أن تداول مصطلح "البيان" قبل أن تظهر تسمية "بلاغة" ليس قصراً على الدراسات البيانية المشرقية؛ ولكنّهُ ظاهرةٌ شائعة في الدراسات البيانية المغربية أيضاً، فـ ((المتتبع للدراسات البلاغية العربية في المغرب يجدُ حقاً، أن الاسم الذي كان شائعاً بين أوساط المتعلمين المغاربة هو اسم "البيان"، ذلك أن الكتب التي وصلتنا لمؤلفين مغاربة تنعت تلك العلوم الثلاثة : علم البلاغةِ، وعلم البيانِ، وعلم البديعِ، باسم علم البيان)) (١).

ولو أسلمنَا نظرَنا في مُؤسّسَاتِ الخِطاب البلاغيّ العَربيّ وفي حدودِ مقصديتهِ لتراءى لنا بوضوحٍ هيمنة المقصدية الإيديولوجية على هذا التأسيسِ، ((وهي هيمنة يمكن تلمس بعض مظاهرها في مستويينِ: يتصلُ الأوَّلُ ببنيةِ الخطابِ، ويخص الطريقة المعتمدة عند علمائنا القدامى في بسط المشاغل البلاغية التي استأثرت باهتمامهم، أمّا المُستوى الثَّاني: فمتعلقٌ بفَحوى الخِطابِ، ويهمُّ القضايا التي استأثرت باهتمامِ علماءِ البلاغةِ العربيةِ المعتبرينَ)) (٢).

إذا نظرنا في الخطاب البلاغي العربي من زاوية المفاهيم البلاغية التي بلورتها الطّروحَات، وجدناها تنتظم في نسق أكبر تحكمه مقصدية إيديولوجية واضحة، فليس ثمة شك في أن اختيار المفاهيم وتشغيلها مرتهنان – بالضرورة – إلى مقاصد إنتاج الخطاب وشروط بنائه، كما أن هذه المقاصد ذاتها ليست مفصولة عن الإشكالات التي تسود المجتمع في مرحلة محددة من تاريخه السياسي والثقافي، فتخترق من ثم خطابات معرفية شتى بما فيها الخطاب البلاغي الذي تفاعلت داخله – في السياق العربي – المفاهيم والمقاصد بطريقة جدلية وفق منظور ابستيمي، تهيمن عليه قضايا كبرى ثلاثة هي قضية التدوين وقضية إعجاز القرآن ثم قضية القدامة والحداثة.

لا نجانبُ الصوابَ إذا قلنا، إنَّ طَروحات الدكتور محمد مشبال عن بدايات الخطاب البلاغي العربي الحديث، ورؤاهُ نحوَ بلاغةٍ موسّعَة، تنمازُ بدعوتهِ الصّريحةِ إلى عَقدِ صُلحٍ معَ الخِطابِ البَلاغيّ العَربيّ الحَديثِ، وإعادةِ النظر في كثير من الأفكار التي نحملها عنه، وتمثُّلِ ما يتميز به من سعة ورحابة، تجعله خطاباً متميزاً عن الخطاب البلاغي الذي سادَ بعد هذه الفترة، فقد بيّن أنه كان شاملاً للخطابين التخييلي والحجاجي، إذ تبنى بلاغيو هذه الفترة، ما عدا أمين الخولي، المكون الحجاجي في تصوراتهم، غير أن هذا لا يعني أن الحجاج حسب طرحِ الدكتور مشبال أصبح مواتياً لمقارباتهم البلاغية؛ بل نرصدُ ثمة فجوة واضحة بين طروحاتهم النظرية التي ينطلقون منها، ومقارباتهم التطبيقية للنصوص، أو الغايات التي عقدوا لها تآليفهم(٣).

---

(١)مجهولُ البَيان : ص٨٩.

(٢)البلاغة والإيديولوجيا، د.مصطفى الغرافي، ص١٢٠.

(٣)يُنظر: البلاغة وأنواع الخِطاب، محمد مشبال، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠١٧م، ص٩-١٠.

أنّ الخطابَ البلاغيَّ العربيَّ الحديثَ والمُعاصر، لجأ في بعض الأحيان، رغم هيمنة التنظير عليهِ، إلى استثمار البلاغةِ آليةً للتحليل، كما فعل لويس شيخو[١]، الذي قام بتحليل قصيدة أبي بقاء الرندي في رثاء الأندلس، وهو تحليل أعاد الباحث صياغته، واقترح وصفه بـ"التحليل البلاغي الحجاجيّ"؛ نظرا لأن لويس شيخو، استثمرَ فيه أُسس بلاغة الحجاج كما تبلورت مع أرسطو، حيث تمثل فيه الأركان البلاغية الثلاثة (الإيجاد، الترتيب، العبارة)، التي تمثّلُ مراحلَ إنتاجِ الخطاب الإقناعيّ في النظرية البلاغية القديمة، وأعاد صياغتها وتطويعها لتصبح آليات لتحليله، وبالتالي فإن البلاغة لم تعد عنده معرفة نظرية بمراحل إنتاج النصّ؛ بل غدت آلية لتأويلهِ، غير أن ما يلاحظه الباحث على هذا التحليل هو أن لويس شيخو، لم يقدم مسوغاً نظرياً لتطبيقه مفاهيم بلاغة الحجاج على نص تخييلي، ويبرر ذلك بأن البلاغة عنده لم تكن تقبل إجرائياً القسمة بين بلاغة أدبية وأخرى حجاجية، وهذا الطرحُ غُيّب عن الساحةِ النقديّة المعرفيّة وخالطتهُ المُغالطات التي حجبت الرؤيةَ السليمة لمضمونِ المنطلق البحثيّ ورؤاهُ الفكريّةِ.

– ثَالِثَاً : بَلاغةٌ واحِدَة؟ أم بَلَاغَاتٌ مُتَعَدِّدَة :

في منظومة التّحوّل من الطّموحِ إلى المُتاحِ العَمَلِيّ تَدرّجت طروحات الدكتور محمد العمري التي انفتحَ فيها على أنماطٍ من الخِطابِ لم نعهدهَا في دراساته البلاغية من قبل، فنراهُ يعودُ إلى نقطة البدايةِ؛ ليتساءل: ما هي البلاغة؟ أين توجد البلاغة؟ هل هناك بلاغة واحدة أم بلاغات متعددة؟ وإذا كانت هناك بلاغات متعددة، هل هناك مشروعية لقيام بلاغة عامة تنسق هذه البلاغات الخاصة وتتحدث باسمها في نادي العلوم المحيطة بها؟

والذي يهمنا هنا هو تحديد قاعدة ننطلقُ منها لتشخيصِ طروحاتهِ، وبيانِ أوجهِ تغييبها، فالبلاغةُ من وجهةِ طرحهِ عَامّة تجمع بين قُطبي الإمتاع والإقناعِ، وجوهر البلاغة من منظورهِ لا يتحدد في الأسلوب ولا في الحجاجِ؛ ولكن في المنطقة التي يتقاطعان فيها بالتحديدِ، وهنا بدأ الاشتغال على بلاغات خاصة تجسدت في السخرية الأدبية (فن الخبر)، والسيرة الذاتية.

مُستخلصاً من هذهِ التّعددية أن تسمية بلاغة تتردد بين ثلاثة مفاهيم كبرى : المفهوم الأرسطي الذي يُخصّصها لمجال الإقناع وآلياته والمفهوم الأدبي الذي يجعلها بحثا في صور الأسلوب، والمفهوم النسقيّ : الذي يسعى لجعل البلاغة علماً أعلى يشمل التخييل والحجاج معاً، وقد مثل المفهوم الثالث مجال الاكتشاف: الذي أراد الباحث تقديمهُ للقارئ العربيّ في مسعى لتجديد الدّرسِ البلاغيّ العربيّ[٢].

---

(١) يُنظر: في فلسفة البلاغة، عبد الحق دادي، ص٣٨.

(٢)يُنظر: البَلاغةُ الجّديدة بينَ التّخييلِ والتّداولِ، د.محمد العمري، أفريقيا الشرق، البيضاء، ط١، ٢٠٠٥م، ص٢٢-٢٥.

لم يسبق للبلاغةِ أن أثارت أنواعاً مرادفة لها بالقدر الذي شهدته أنواعها المنفتحة في الدَّرسِ البلاغيّ المُعاصرِ، فالإمتاع والإغراء والإقناع، والحجاج والاستهواء، والاستدلالِ، كلماتها السحريَّةُ، حَتَّى إنَّهُ لم يبقَ مجال من المجالات من السياسة إلى الإشهار ومن النظرية الأدبية إلى تحليل الخطاب، لم يُصبه تجديد المنعطف البلاغي الذي استحوذ على العلوم الإنسانية، واليوم، لا يتعين البحث عن وحدة هذه المجالات التي تتعدد مظاهرها فحسب؛ بل يجب البحث عن وحدة كل ما تُستعمل فيه أيضًا. لذلكَ يجب تسليط الضوء على الطروحات التي انبثقت عنها هذهِ التّعدّدية، والوقوف على القوانين الأساسية التي تحكم البلاغة مزاوجينَ على الدوام بين النظرية والتطبيق، معَ فسحِ المجال أمام فهم آليات البلاغة التي تُذعن لها جميعًا، حَتَّى نَقِيَ أَنفُسَنَا الوقوع ضحايا المُراوغةِ في الطّرحِ والتّحقّق النقديّ[1]، فهناك طروحاتٌ كثيرةٌ انطلقت من فكرةِ توسيع آفاق البلاغةِ العربيّة، وإخراجها مِن حيّز الاختزالِ إلى فضاء البلاغة الرَّحبَةِ، وإعادةِ النظرِ في الخِطابِ البلاغيّ العربيّ بعدَ أن استحوذتْ عليهِ القِراءاتُ الجّمَاليّة والأدبيّة الصّرفة، التي أغفلت أنظارَ الباحثينَ عن تبصِرَةِ أنواعِ البلاغات، وتقزيمِ حجمها الحقيقي، ويمكننا الانطلاق في هذا المبحثِ من الطرحِ الذي قدّمَهُ نخبة من البلاغيين والنُّقّاد الدّاعمين مفهوماً عامّاً للبلاغةِ يتراوحُ بينَ جُملةِ طروحاتٍ، وتصوّراتٍ، هي :-

١- طروحاتٌ تدمجُ التخييل والحجاج في إنتاج الفعل البلاغي، باعتباره فعلاً تأثيرياً يروم الإقناع، أي أنّها تُحدّد البلاغة تحديداً تداولياً حجاجياً، وتستبعد الطرح الجمالي الخالص، الذي هيمن على التفكير البلاغي العربيّ منذ تلخيصات القزويني وشروحاته على مفتاح العلومِ للسكاكي، فهذهِ الطروحات ترى الأسلوب اقتداراً وظيفياً وليس شكلياً[2].

٢- طروحَاتٌ تفصلُ التخييل عن الحجاج، وتحصر البلاغي في ما هو جمالي، وأبرز من يمثل هذا الطّرح: أمين الخولي، الذي دافع عن البلاغة الأدبية وانحاز لها، في مقابل ذلك خاصم الحجاج، فكانَ طرحَهُ جمالياً خالصاً؛ لكن هذا لا يعني أنه كان يميل إلى الأخذ بالبلاغة الأسلوبية الضيقة، وإنّما وسّعَ من دائرةِ الأسلوب، وانتصرَ لمقاربةٍ بلاغيةٍ تتخلص من رهاب التصنيف، وتبتعد عن استخدام أدوات المنهج المنطقي، وأدوات المقاربة التعليمية، وعملَ على

(١)يُنظر: ترويض النص دراسة للتحليل النصي في النقد المعاصر، حاتم الصكر، الهيئة المصرية للكتاب، د.ط، ١٩٩٨م، ص٦٧.

(٢)يُنظر: الرُؤى المُقَنّعة، كمال أبو ديب، ص١٠٣؛ والأنساق والبنية، مجلة فصول، مج ١، العدد الرابع، يوليو ١٩٨١م، ص٢٤.

إعادةِ ربطِ البلاغة بالأدب، وتخليتها من المناهجِ غير الأدبية، التي حولتها إلى معرفة منطقية موضوعها الحجج والاستدلالات(١).

٣- طرُوحَاتٌ تُدافع عن الأدب بمفهومهِ التخييلي، منطلقةً من مفاهيم بلاغة الحجاج، يمثل هذا الطّرح : أحمد حسن الزيات، وأحمد الشايب، اللذان لم يراعيا الفروق بين ما هو تخييليّ، وما هو تداولي، فأسقطا مبادئ بلاغة الحجاج على الأدب، التي اكتسباها من انفتاحهما على بعض المراجع الغربية الحديثة. يستشف من خلال هذا التصنيف أن البلاغة في بدايات الخطاب البلاغي العربي الحديث، هي بلاغة موسعة، تشمل المكونين التخييلي والحجاجي، فأغلب الباحثين الذين ينتمون إلى هذه الفترةِ، باستثناءِ -أمين الخُوليّ- دمجوا، بوعي أو بدون وعي، المكون الحجاجي ضمن تصورهم للبلاغةِ(٢).

٤- طروحاتٌ نقلتْ تصنيفَ الوجوهِ الأسلوبية إلى تصنيف الخطابِ من خلالِ إعادة النظر في حقل البلاغةِ، وتدبُّر العلاقةِ القائمةِ بين التفكير البلاغيّ العربيّ الحديث، وأنماط وأنواع الخطاب، منطلقةً في ذلك من فكرةٍ أساس تتمثل في أنّ البلاغة بقدر ما هي تفكير تجريدي في قوانين الخطاب هي أيضا تفكير تجريدي في أنماط وأنواع خطابية مختلفةٍ، وهذا ما لامسناهُ في الخطاب البلاغيّ للمحدثين، الذين كانوا على وعي بعلاقة البلاغة بأنواع الخطاب، بناءً على المبدأ الذي يربط الخطاب بالمقام، وعياً ترجموه في عنايتهم بتصنيف الخطابات إلى أجناس وأنواع، فلم تعد البلاغة عندهم مقتصرة على الخطابات التقليدية، بل أصبحت تتسع (عند لويس شيخو مثلاً) لمجموعة من الأنواع الأدبية: (الأمثال المختلقة، الرواية، الوصف، المناظرات، المقامات، التاريخ، المكاتبة، الشعر) والخطابية: (الخطاب الاحتفالي، الخطاب المشوري، الخطاب المشاجري، الخطاب الوعظي)، أتاحَ لهم ذلك أن يدركوا أنه بقدر ما هناك من صفات مشتركة للأسلوب في مختلف الأنواع، وهي صفات تجريدية ومتعالية، هناك سمات خاصة بأساليب الأنواع الأدبية المختلفة، تنبع من خصوصيات كل نوع على حدة، لذلك فإن وعي المحدثين بهذا المبدأ (نمط / نوع الخطاب) أمكنهم من معاينة سمات خاصة بكل نوع خطابي، إذ تختلف الأساليب باختلاف الأنواع والأغراض، ((فأسلوب القصة غير أسلوب الرواية، وأسلوب العتاب غير أسلوب الشكر، وأسلوب التأثير غير أسلوب الإقناعِ، وتكشفُ عناية المحدثين بتصنيف الخطابات، عن اتساع حقل البلاغة عندهم خارجَ حدودِ وجوهِ التعبير

---

(١)يُنظر: نظريات معاصرة، د.جابر عصفور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د.ط)، ١٩٩٨م، ص٨٠.

(٢)يُنظر: مرجعيات التفكير النقدي العربي الحديث، بشير إبرير، مجلة علامات النقدية، ج ٤٩، م١٣،سبتمبر، ٢٠٠٣م، ص٢٥.

والتنسيقِ وتقنيات الإيجاد، إلى تدبر الخطاب في أنماطه وأنواعه المختلفة، وبذلكَ ((يصبح الوعي بالثوابت والسمات التي تحدد هوية الأجناس والأنواع الأدبية والخطابية، عاملاً من العوامل التي يخضع لها ضبط بلاغة النصوص والخطابات التي تنبثق عنها، على نحو ما يخضع لها تقييمها تقييما صحيحاً)) [١].

٥- طروحَات أنتجت مفاهيم البلاغةِ الجّديدة، وتوقّفت عندها لم تستكمل مابدأتهُ، ولم تُراعِ في تنظيرها للحجاج مقتضيات الخطابات؛ إذ إن النصوص التي كان يوردها متبنو هذهِ الطّروحَات في مصنفاتهم[٢] هي من قبيل الشواهد على تنظيراتهم، على الرغم من دعوتهم لفتح البلاغةِ، وتوسيع مجال انشغالها لتشمل خطابات جديدة مكتوبة ومرئية لم تدخل في حسابات المنظرين البلاغيين الأوائل الذين بنوا بلاغتهم على الخطابة الشفاهية الحَيّةِ المُستقاةِ من واقعِ عصرهم.

إنّ ربط البلاغة بالخطابات ليس أمرًا جديدًا، ومع ذلك فإنه ليس بالأمر الذي كرّسته البلاغة في تاريخها الطويل؛ إذ يمكننا القول إن تاريخها هو تاريخ تجاذب الاتصال والانفصال عن الخطابات الحيّة، وإدمانها الانشغال بأجهزتها الداخلية في ما يشبه إعادة إنتاج متواصلة لأدواتها ومقولاتها، غير عابئة – في معظم الأحيانِ- بما يجري في الخطاباتِ وبما تفرزهُ من قضايا وأسئلةٍ وخصائصَ نوعيّة.

- المِحْوَرُ الثَّانِي : الطّرُوحَاتُ البِنَائِيّة التَّكَمِيلِيّة :

هذهِ الطّروحاتُ جاءت محاولةً لتعزيزِ الطروحات الأولى- التَّأسيسيّة- إذ بالإمكان تطبيقيّاً إضافة إنجازات حقيقية تُكمّل بناء الخِطاب البلاغيّ العربيّ المُعاصِر، وتدعمُ نظرياتهِ واتجاهاتهِ،و يقومُ هذا المحور على مرتكزات داعمة، شكّلت مجمل الطّروحات الضمنيّة التي تندرجُ في مفصل البناء التكميلي دون إعادة نُسخ مكرّرة للمقولات المطروحةِ، ومن أهم تلك المرتكزات التي غُيّبت عن السّاحة البلاغيّة، ما أجملناهُ بالآتي:-

١- بِنَاءُ الهُوِيَّةِ والإستِرَاتِيجِيّاتُ الحِجَاجِيَّة :

تتبَنّى بعضُ الطروحات البلاغيّة المُعاصِرة ضرورة توظيف أدوات البلاغةِ، وعدمِ اقتصارِها على دراسة النص الأدبيّ وحده، وإنّما يمكن أن يتم ذلك مع مختلف النصوص والخطابات المختلفةِ : (الإعلامية، السياسية، الدينية، والأدبية...)؛ إنَّ البلاغة وفق تصوراتهم ما هي إلاّ مجموعة من الأدوات والإجراءات التي تقارب اللغةِ، وتستبطن دلالاتها ومعانيها، والتي يمكن تطبيقها على أي

(١)البلاغة وأنواع الخطابِ، ص١٢٢.

(٢)يُنظر: الوجهُ الآخر للبَلاغةِ العَربية، مُراجعة في الأُصولِ والمُنطلقات، أ.د.حبيب مونسي، ص١١٧.

نص لغوي، وهذا ما يقرّره كثير من الباحثين[١]؛ ذلك ((أن البلاغة، سواء في الحيّز العربيّ أم في غيرِه، ماهي إلّا وسيلة لبلوغِ المراد عن طريق التعبير الفنيّ، ولا فرقَ فيما إذا كانَ مثل هذا التعبير يدخل في نطاقِ الشعرِ، أم يمت إلى نطاق النثر)) [٢].

وهذا ما يطرحهُ باحثٌ آخر يذهب إلى ((أن مجالَ الدّرس البلاغيّ أعمُّ وأشملُ من مجالِ النقد الأدبيّ، فالبلاغةُ تدرس كل صنوفِ القولِ في الخطبِ والرسائل، والقصائدِ، والشعرية، والأمثال، والنظمِ القُرآنيّ، وما إلى ذلك من ضروب القول، حتى النصوص الحوارية المتبادلة في قضية من القضايا أو مناسبة من المناسبات)) [٣].

وهذا الطرحُ يتناسبُ بشكلٍ كبيرٍ مع المفهومِ العربيّ القديم للبلاغة؛ ذلكَ أن مصطلح بلاغة (Rhetoric) في الدراسات المُقابلة يتردّدُ بين ثلاثة معانٍ، هي: الإقناع الخطابي، والإنشاء أو التعبير، وأشكال التعبير اللغويّ؛ بينما يقتصرُ المفهومُ العربيّ على المعنى الأخيرِ الذي يجعلُ البلاغةَ خاصةً بأشكالِ وأساليبِ التعبيرِ، ولهذا لم يرتبط هذا المصطلح في الاستعمالِ العربيّ بفنٍ دونَ فنٍ؛ بل غَدَا عِلماً صَالحاً لدراسةِ بلاغةِ الكلامِ عموماً، شعراً كان أو نثراً، مكتوباً أو منطوقاً، ويؤكّدُ التعريفُ الذي ارتضاه علماءُ البلاغة العربية للبلاغة ذلكَ، حيثُ عدّوها مطابقةَ الكلامِ لمقتضى الحالِ، مع فصاحتهِ[٤]؛ فنصَّ التعريفُ على "الكلام" ليشملَ كل صنوفِ القولِ وأشكالهِ.

ولم تُميّز دراسةُ البلاغةِ العربيةِ للأساليب بين شعرٍ ونثرٍ، فقد كانت دراسة الأسلوبِ اللغويّ تحتلُ الصدارة في البلاغةِ العربية شعراً كان أو نثراً[٥]؛ إلّا أنّ البلاغةَ العربية كانت تدرسُ الأسلوب بشكل جزئيٍّ ضيق لا يعمدُ إلى دراسة النصّ كاملًا، وهذا النهج الجديد القديم الذي يوظف أدوات البلاغة في دراسةِ النصوص والخطابات المختلفة هو ما تبنّتهُ هذه الطروحات، محاولةً تسليطَ الضوءِ على العديدِ من النّماذج التطبيقية في نصوص وخطابات مختلفة، في مسارات منهجية ترتكزُ على الاستقصاءِ الكميّ الذي ينظر إلى الشيوعِ، أو الندرة في رصد الظواهر البلاغية، ويحاول تحليل ذلك والوقوف عند نتائجهِ.

---

(١)مِن أبرزِ هولاء البلاغيين والنّقاد: د.مصطفى ناصف، شفيع السيد، سعد عبد العزيز مصلوح، د.أحمد مصطفى المُراغي، د.محمد العمري، د.سمير أبو حمدان، د.أحمد يوسف.

(٢)الإبلاغية في البلاغة العربية، سمير أبو حمدان، منشورات عويدات الدولية، بيروت، ١٩٩١، ط١، ص٦ .

(٣)فن القول بين البلاغة العربية وأرسطو، د. شفيع السيد، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص ٣٧.

(٤)يُنظر: علوم البلاغة، أحمد مصطفى المراغي، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٦هـ، ص ٣١.

(٥)يُنظر: في بلاغة الخطاب الإقناعي، د. محمد العمري، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٨٦م، ط١، ص٨٧.

ولعلّ هذا الطرح يمثلُ توجّهاً حديثاً في تحليل النصوصِ، حيث يصبح النموذج الرياضي الذي يُستخلص من معدلات التكرار، وظواهر الأداءِ، ومعاملات الثبات والتغير هو الأساس لنوع من التناول العلمي الذي يجمع النظائر ويختبر الفروض ويوضح النتائج، وبهذا يكون انتهاء عصر المعيارية الجزئية هو المبدأ المؤسّس لتوجّهات البلاغة العلمية الجديدة الواصف لحركتها(١).

وقد أكّدَ هذا الطرح الدكتور صلاح فضل، واضعاً شرطاً يُظهر القيمة العُليا للهوية الخِطابية بقولهِ : ((إذا كان التجديد المبدع في الخطاب الأدبي لا يتجلى في الوحدات الصغرى وإنما في الأبنية الكلية النصية، فإنّ هذا الخطاب البلاغي يندرج بدوره في منظومة معرفية تدعوه إلى أن يستثمر الخطابات العلمية المجاورة فهذا هو سياقه المنتج لآلياتهِ، فالتقدم الذي أحرزته علوم اللغة، والنفس ونظريات الجمالِ، والشعرية الألسنية، والتقنيات الأسلوبية يصبُّ في بؤرة الخطاب البلاغي الجديد، ويشكل مقولاته بطريقة توصف بأنها "عبرَ تخصصية"، (Interdisciplinaire)، إذا كانت هذه العلوم وغيرها تدرس النصوص))(٢)، فثمة جوانب متعددة هي التي تؤلف موضوع الدرس في مختلف الميادين، وعندئذٍ تتجلى ضرورة دراسة النصوص بصورة مشتركة، وذلك بتحليل الخصائص العامة التي تتصف بها النصوص، والاستعمالات اللغوية فيها، وما أن يتم هذا التحليل حتى يصيرَ بوسعنا أن نتفحص عن كثب النقاط التي يمكن أن تتباين فيها النصوص من حيث البنية والوظيفة.

إنَّ هذه المقاربة للنصوصِ ذاتَ الطابعِ الأعمّ والمتعددِ الميادين هي التي ينادي بها علم النص، كما يطرحُ مؤسسوهُ، ويرون أنّهُ بالنظر إلى طبيعة موضوعه فهو يتجاوز إطار الدراسات الأدبية، ومع ذلك فإنّهُ يندرجُ الآن في هذا الإطار إلى جانب علوم اللغة والأدب، وإنْ كانَ ميدانه أعم منهما.

ومن المُلاحَظِ أنّ الهُويّة البلاغية العربيّة للظّواهرِ التي يتم تدريسها عادةً للمتعلمين وفق منهجية بلاغية تقليدية، يمكن أن توفر خزاناً لتدريبهم على تنمية قدراتهم الاستدلالية عبر إدماج المكون الحجاجيّ في تحليلها، لو تنبه القائمون على وضعِ المناهج الدراسية إلى ذلكَ؛ لكنهم غالباً ما يحصرون أنفسهم في التحليلات والدراسات البلاغية القديمة، مغيّبين التطورات الحديثة التي أغنت تصورات القدماء وأعادت تحيينها وربطها بتصورات جديدة ومعاصرة، لا تلغي القديم وتقصي جوانبه الإيجابية الكثيرة؛ بل تضيف إليهِ وتزيده فائدةً وثراءً؛ وحتى ما راج إدراجه ضمن الصور البيانية التي يتم التركيز على وظيفتها الجمالية فقط، يمكن استثمارهُ بإبرازِ وظيفتها الاستدلالية؛ فقد طُرحَ في الأوساط البلاغيّة العربيّة أنَّ البلاغةَ ،أو الخطابةَ تعني فن الإقناع، واشتهرت في هذا

(١)بلاغةُ الخطابِ وعلم النصّ،د. صلاح فضل، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، ١٩٩٦م، ط١، ص١٥٥.

(٢)بلاغةُ الخطابِ وعلم النصّ، د. صلاح فضل، ص١٥٥.

الإطار دراسات وطروحات متعددة في إطار نظريتها لمفهومِ الحجاج، حتى نرصدَ في أغلبها تغييب للاستعارةِ من منظورٍ يرى أنّه لا يمكن تحليلها حجاجياً إلّا من حيث هي تمثيل مكثَّف وموجز[١]؛ ووجهُ الكثافةِ فيهِ والإيجاز الاندماجُ الحاصلُ بين أحدِ عناصرِ الموضوع وأحد عناصر الحاملِ، اندماجاً لا يمكنُ معه معرفةُ أيّ العنصرين هو الموضوع وأيُّهما الحامل، وهو ما يحتِّمُ الاستنجادَ بأحدِ السياقينِ: المقاليّ، أو المقاميّ، وهذا الانصهارُ بين طرفي الاستعارة يُسَهِّلُ بتصورهم، من الناحية الحجاجية، حصولَ آثارها الإقناعية.

ومِن هنا ترسّخت في الأبحاثِ الحديثة والمُعاصرة المقاربات الحجاجية للاستعارةِ، وتحليل عملياتِ الإقناعِ ذات الطابع الاستعاري. فقد طُرحت الكثير من البحوث والدّراسات المُتضمّنة دراسة الاستعارة من وجهةٍ حجاجيةٍ، مدارُ البحثِ فيها مجهوداتُ البلاغيين العربِ الرّواد الأوائل–شيوخُ البلاغةِ، وأساطينُها– فالظاهرة الاستعارية ذات الخصائص الالتباسية في نظرهم تقوم على مفهوم "الادعاء"، بمقتضياته الإجرائية الخاصة والتي تتجاوز معنى "الزعم" الذي يحصرهُ فيه مجموعة من الباحثين المُتبنينَ هذهِ الطّروحات، وبهذا تجتمعُ للقولِ الاستعاريّ عندهم وفق المقاربة الحجاجية صفة التركيب الخبري، وقبول الأخذ على جهة الحقيقةِ، إضافة إلى الاشتمال على بنيةٍ تدليلية كلّها تؤسس لدعوى الاشتغال الاستعاريّ، فيكون المستعير "مدعياً" وعمله "ادعاء"؛ ادعاء معنى المستعار منه للمستعار لهُ، والتدليلُ على ذلك وفق طرق الإثبات الغفل والساذج، أو وفق طرق الإثبات المستند إلى الشاهد والدليلِ، والعمليةُ كلها تتعلق بالحكم الذي ينطوي عليه الخبر من خلال الاستعارة، فيكونُ مضمونها في هذه الحالة ذا طابع إسنادي عقلي يصدق أو يكذب بدليلٍ .

وممّا نرصده في هذا الموضعِ إهمالُ هذا الطابع الادعائي للاستعارة في المقررات الدراسية التي تركز على تعريف الاستعارة باعتبارها نقلاً يمكن إرجاعه إلى أصله بتحويل الاستعارة إلى تشبيه وإظهارِ الطرفِ المحذوفِ، والأمرُ أوضحُ مِن وجهةِ نظرنا فيما يتعلقُ بصلة المجاز بالحجاجِ، أو إبرازِ الأبعادِ الاستدلالية في الكنايةِ؛ بل نزعمُ أن بعضَ ما أُدرجَ ضمنَ المحسنات البديعية غنّي بأبعادٍ حجاجية يمكنُ استثمارها في التحليل مثلَ: الطباق والمقابلةِ، والتضمين والاقتباسِ، والأسلوب الحكيم، وحتى محسنات لفظيّة، مثل: الجناس، والسجع؛ ممّا يحتاجُ إلى دراسةٍ مستفيضةٍ ليسَ محلُها هذهِ التدوينة.

وبناءً على ما سبقَ يمكننا التسليم بنتيجةٍ حتمية مفادُها أنّ التحليلَ البلاغيّ الحجاجيّ يتأسّسُ على رصدِ مجموعةٍ من الإستراتيجات الحجاجية، تؤول إلى طريقة تنظيم الخطاب عموماً،

(١)هذهِ الطّروحات المُعاصرة انتهجت مسارات فكريّة تعكسُ رؤاها، من أبرزها على سبيلِ المِثالِ لا الحصر: البلاغة والهوية: عادل المجداوي، الحِجاج في التداولية، مدخل إلى الخِطاب البلاغيّ: صابر الحباشة، وجميع طروحات الدكتور عماد عبد اللطيف، والدكتور سعد العوادي.

فالخطيب لابُدّ لهُ أولاً من استحضارِ الجمهور الذي سيتوجهُ إليهِ بالخطابِ، ومن ثمَّ كانَ عليهِ أن يستندَ إلى مواضعَ مشتركة تسعفهُ في إقامةِ حبلٍ يضمن مقبولية خطابهِ، كما يتوجبُ عليهِ تضمين خطابهِ مجموعة من الحُججِ التي يراها كفيلة بإيقاع التأثير والإقناع في المخاطب، هذا بالإضافة إلى الاعتناء بصورتهِ الخطابية سواءً داخل الخطابِ أو خارجه، زِد على ذلكَ البحث عمّا يكونُ لهُ عوناً في تحقيق غرضهُ من((اتكائهِ على إثارةِ أهواءِ المخاطبِ، وكل هذه العمليات السالفة الذكر تدخلُ في مرحلةِ الإيجادِ وإثباتِ الهُويّة، فتأتي مرحلةُ تنظيم الخطابِ، ثم تتلوها مرحلة البحثِ عن الأساليب اللغوية المعينة على غرضه، إذ لا يكفي أن يعرفَ المرء ما يجب أن يقوله، بل عليهِ أيضاً أن يعرف كيف يقوله، وهذا يسهم كثيرا في جعل الكلام يظهر ذا طابع معين))[١]، وهذه الطروحات الثلاث من بناء الخطابة كما حددّها أرسطو، لا تكتمل إلّا بمرحلتين أخريين، هما التّذكُّر والإلقاء.

– ثَانِيّاً : طرُوحَاتُ الثَّالُوث الخِطَابِيّ: الإيْتُوس، البَاتُوس، اللُّوغوس :

يُمثِّلُ الثّالوثُ البلاغيّ الأرسطيّ: الإيتوس، الباتوس، واللوغوس، الإستراتيجيات التي ينبني عليها الخطابُ البليغُ، إذ انَّ المقصودَ باللوغوس (Logos) : ممارسةُ العقلِ فِي الحِجَاجِ، عَن طريقِ توظيفِ الاتفاقِ المُسبقِ، والتّقنياتِ الحِجاجيّةِ التي أوردها المُنظّرونَ في طروحاتهم الشهيرة، والتي يمكنُ استجلاؤها من الخطاباتِ، سواءً أكانَ النصُّ تداوليّاً في كليتهِ أو في مقاطعَ تَضُمُّها النصوصُ الأدبيةُ التَّخييليّةُ كالرّوايةِ مثلاً[٢].

فِي حينِ أنّ الإقناعَ بالإيتوس (Ethos)، يتمُّ بالعودةِ لحظوةِ الخطيبِ، وسلطتهِ التأثيريةِ، أي إلى الصورةِ التي بناهَا المتكلمُ عن نفسهِ ضمنَ طيَّاتِ الخطابِ، والتي أرَّخَ لها أرسطو في ثلاثةِ مظاهر كشفتها الدّرسُ البلاغيّ المُعاصرِ عبرَ مجسات الطرح الداعية أنّ للخطيبِ ثلاثُ خصالٍ يجبُ التّحلّي بها كيمَا يحدث الإقناع؛ لأنّه يصرفُ النظرَ عن البراهينِ، فإنَّ الأمورَ التي تُؤدي إلى الإقناع ثلاثة، وهذه الخصال هي: اللّبُّ، والفضيلة، والبرّ، واللبُّ قد نرادفهُ للسّداد[٣].

غيرَ أنّ ماتجدرُ الإشارةُ إليهِ هو أنّ إيتوس الخطيب يتشكلُ وفق الإطارِ النوعيّ للخطابِ الذي يحتضنهُ، وهنا يطالعنا طرح الدكتور محمد مشبال المُغيّب عن مسارهِ التكميلي البنائيّ، الذي لابدّ أن يُضيفَ إلى ((أن صفات الخطيب، أو مظاهر الإيتوس تصبحُ غير محددة؛ بل هي وليدة

---

(١)الخطابة، أرسطو، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، دار الرشيد – الجمهورية العراقية، وزارة الثقافة والإعلام، سلسة الكتب المترجمة، (١٤)، ١٩٨٠م، ص١٩٣.

(٢)يُنظر: الخطابة، ص٢٩.

(٣)المستمعُ : هو المتلقي في زمانٍ ومكانٍ محددينِ، واقعاً أو افتراضاً، يُنظر: المحاضرة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة، د.محمد العمري، ص٤٩ .

المقامات وأنواع الخطابِ))[١] معياراً ثانياً يركزُ على المقولات الحِجاجية، بوصفها اختصاص الباتوس (Pathos)، فينبغي التنبيه أولاً إلى مضمونهِ المقاليّ الحجاجيّ؛ بغض النظر عن كونهِ مفهوماً سيكولوجياً؛ لأنّ الطرح المعاصر استثمرَ بيانِ الجانبِ الذي يهمهُ منها باعتبارها وسائلَ الاقناعِ، يركزُ فقط على جانبها الحجاجيّ، أي الحالة التي يصبحُ عليها المتلقون بما يثيرهُ الخطابُ فيهم، وفي انفعالاتهم، وردةِ فعلهم الوجدانية؛ لذلك فالمُحلّلُ البلاغيّ عليهِ طرحُ السؤالِ الآتيّ:-

– كيف بنى المتكلمُ / الخطيبُ الأهواءَ والانفعالات في خطابهِ؟ ومِن ثَمّ البحثُ عن المؤشراتِ والأدواتِ المؤثرةِ في الأفعالِ العاطفيةِ للمتلقينَ، بما في ذلكَ المواضع، أي المُسَلَمات التي يحددها موضوعُ الخطابِ من قيمٍ إيديولوجيةٍ، واختياراتٍ فكريّةٍ واجتماعيّةٍ.

وعليهِ طرحتِ الدّراساتُ المُعاصرةُ رؤىً مضمونها غُيّب عن الساحةِ النقديّة ،رصدناهُ في جملةِ أنّ التصديقات التي يقدمها القولُ على ثلاثة أضربٍ[٢] :

- الأوّلُ :- يتوقّفُ على أخلاقِ القائلِ .
- الثّاني :- يتوقّفُ على تصيير السامعِ في حالةٍ نفسيةٍ ما.
- الثّالِثُ :- يتَوقّفُ على القولِ نفسهِ من حيثِ إثباتهِ أو عدمهِ.

وجملة الأضرب الثلاثة تنتمي إلى الحجج الصناعية، أي الحجج التي تتوقف عليها مهارة الخطيب في التكيف مع مستمعهِ؛ فإذا كان الإيتوس يحيل على ذات الخطيب وأخلاقه، واللوغوس يشير إلى الحجج العقلية التي يتضمنها الخطاب، فالباتوس: إستراتيجية يتكئ فيها الخطيب على إثارة أهواء جمهور بغية التأثير فيه وإقناعه بدفعه إلى اتخاذ أحكام معينة، أو مباشرة عمل مادي، وذلك انطلاقاً من أن المخاطب يتغير موقفه من قضية ما بتغير الأهواء التي قد تعتريهِ، ((فالانفعالات، هي كل التغييرات التي تجعل الناس يغيرون رأيهم فيما يتعلق بأحكامهم، وتكون مصحوبة باللذة أو الألم، مثل: الغضب، والرحمة، والخوف وكل الانفعالات المشابهةِ وأضدادها))[٣].

وقد غيّبت كثيرٌ من الطروحات اليوم الإشارة إلى أهمية العواطف في عملية الإقناع؛ بل وأغفلتها مؤثراً في زاوية إنتاج النصّ من جهة تفسيرهِ وتحليلهِ وتأويلهِ، وهذا ما دفعنا إلى التنبيهِ على الانفتاح الحاصل في الطروحات التي طوّرت مفهوم الباتوس، خاصةً تحليل الخطابِ؛ ليكون أداةَ تحليلِ النصوصِ، انسجاماً مع منطلقنا الرصديّ الباحثِ عن مجملِ الطّروحات النخبويّة المُغيّبة في بطون

---

(١) يُنظر: الخطابة، ص٢٩.

(٢) المصدر نفسه: ص٣٦.

(٣)الخِطابة: ص٣٦.

المُصنّفات، وهو مشروعٌ مستمرٌ لا يستعجلُ الوصولَ إلى نهايتهِ؛ بل يسعى إلى تطوير وسائلِ الرّصدِ والتحليلِ، وزيادتها دقةً وكفاءةً، واستكمالِ العملِ الضروريّ الجَّادِ لتطويرِ المنهجِ ولتحقيقِ فهمٍ أعمقُ غوراً وأكثرُ شموليةً للطّروحَات الفِكريةِ المُعاصرة على الأصعدةِ كافة، وبلورةِ مساراتها وتوجّهاتها في بوتقةٍ واحدةٍ، في ظلّ غيابِ في تحليلٍ علميٍّ دقيقٍ لما يكشفُ عنهُ الدّرس البلاغيّ العربيّ المُعاصرِ ضمنَ نطاقِ علاقاتٍ سائدةٍ في البُنى الفكريّةِ والثّقافيّة والسياسيةِ، وهو في الواقعِ يطمحُ فى مرحلةٍ متقدمةٍ منه إلى فهمِ هذهِ الطّروحاتِ، وتنظيمِ مسارات توجهها .

– الخَاتِمَةُ :

بعدَ هذا التوصيفِ المقتضبِ لبعضِ الطّروحَات البلاغية المعاصرة يتَبقّى لنا طرحُ التّساؤلاتِ الآتيةِ:–

– لِمَ تخلفتِ البلاغةُ العربيةُ عن الرّكبِ؟

– وما مدى جدوى الطّروحات والرُّؤى الفكرية في تطويرِ الدّرسِ البلاغيّ العربيّ المُعاصرِ؟

الإجابةُ تتطلبُ توحيداً لمساعي البلاغيين العرب من أصحابِ الطروحَات المتباينة، أو الرؤى المتفقة، والتي تفرّقت وغُيّبت عن العملِ بها، والأخذِ بمضامينها على مستوى التطبيقِ؛ وهنا لابدّ من الاجتهادِ في جمعِ تلك الطروحات، وبلورةِ الجهودِ في صيغة متكاملة للبلاغةِ العربيةِ، يحافظون فيها على خصوصية تراثنا البلاغيّ والأدبيّ، وفي الوقتِ نفسهِ يفيدون من المُنجزِ الغربيّ في ترميمِ ماأخفقت البلاغة العربية عنِ الوصولِ إليهِ.

وهذهِ دعوةٌ صريحةٌ تضمّنتها البحثُ المُستندُ إلى دعامتينِ رئيستينِ في التقاطِ الطّروحات المُنبثقةِ عن فكرٍ إبداعيّ دائمِ التساؤلِ، مُغيّبٌ في بطونِ المُصنّفاتِ، وتضاعيفِ الكُتبِ والأبحاثِ المتنوعةِ الاختصاصِ، حاولنا التقاطَ نُخبٍ واعيّة تفتحُ آفاقَ المعرفةِ المُستقبليّة، في ظلّ أزمةٍ حقيقيّة للبلاغةِ العربيّة ومرتهنات الحداثةِ.

أسفرت تلك الإلتقاطات عن نتائجَ دقيقة، يمكننا تسميتها بالطّروحاتِ الاستنتاجيّة، نجملُها بالآتي:–

١– شكّلت الطّروحَات المُعاصِرة ميداناً معرفيّاً لمنظومةٍ بلاغيّة استقت من القديمِ مشروعيتها؛ لتأسيسِ خطابٍ بلاغيّ عربيّ يحاولُ الوصولَ لمصافّ الخطاباتِ العالميّة.

٢– وظّفَ أساتِذةُ البلاغةِ ونُقّادُ الأدبِ رؤاهم الفكريّة والفلسفيّة؛ بعيداً عن المعياريّة الصّارمةِ، مع استيحاءِ مولّداتٍ تتماشى مع معارِفِ وعلومِ العصرِ، وتنفتحُ على الثّقافاتِ المتعدّدةِ.

٣- كثيرةٌ هي الطّروحات البلاغيّة التي تسعى لتجديدِ منظومةِ الخِطابِ البلاغيّ العربيّ، على اختلافِ منازعها، وأهدافها، ومضامينها؛ لكنّها مازالت مُغيّبة بقصدٍ أو دونه، تحاول الخروج من شرنقتها إلى ولادةٍ جديدة غير مسبوقة.

٤- بينَ البلاغةِ التّقليديةِ، والبلاغةُ المختزلة طروحاتٌ رحبة تنتظرُ الغوصَ في أعماقها في رحلةٍ بحثيّة أكبر من هذهِ التّدوينة .

٥- يبقى مَتنُ البلاغةِ العربيّة الذي يعالجهُ الجيلُ اليوم قابلاً للتأويلِ والقراءاتِ المتعددةِ التي تكشفُ عن وجوه البلاغات الحقيقيّة المخبوءةِ تحت قناعِ التّغيّيبِ .

٦- أثبتَ البحث الرَّصديّ كمّاً ونوعاً التراكمات المعرفية المطروحة في مناحي البلاغة، وفتَحَ ملفات قضايا بلاغية معاصرة منها : (قضية تزاوج البلاغة بالاقناعِ، وقضية الاستحسان، وقضية الإبانة والإبلاغ، وهيمنة المقصدية الإيديولوجية على الموروث البلاغيّ).

- **التَّوصِيات:-**

ومعَ ما سبقَ طرحهُ نسعى لتحقيقِ توصياتٍ ومقترحاتٍ مشروعةٍ، أهمها:-

١- تأسيسُ خِطابٍ بَلاغيٍّ موحد يجمعُ الطروحات الفكريّة الناضجة والمتسلسلة التي يكمّلُ بعضُهَا بعضاً .

٢- تصحيحُ مساراتِ الدَّرسِ البلاغيّ العربيّ المُعاصرِ، وإرجاعهِ لنقطةِ الإنطلاقِ التّأسيسية الأولى (التراث).

واللهُ مِن وَرَاءِ القَصْد.

- ثَبْتُ المَصَادِرِ والمَرَاجِعِ :

- أوّلاً : العَرَبِيّة :

١. أسئلة البلاغة، د.محمد العمري، أفريقيا الشرق، ط١، ١٩٩٣م.
٢. أسلوبية البلاغة، د.محمد عبد المُطّلب، مكتبة الشباب، ١٩٩٣م.
٣. أوساط البَلاغة العربية، أ.د.مصطفى الجّويني، دار المعرفة الجامعية، مصر، ١٩٩٩م.
٤. البحثُ البَلاغيّ عندَ العَربِ، تأصيلٌ وتقييم، الدكتور شفيع السَّيد، دار الفكر العربيّ، القاهرة، ط١، ١٩٨٧م.
٥. بداياتُ الخطابِ البلاغيّ العربيّ الحديث، نحو بلاغة موسعة، د.محمد مشبال،دار كنوز المعرفة العلمية، ط١، ٢٠٢٠م.
٦. البَلاغةُ الجّديدة بينَ التّخييلِ والتَّداولِ، د.محمد العمري، أفريقيا الشرق، البيضاء،ط١، ٢٠٠٥م.
٧. بلاغةُ الخِطابِ وعِلمُ النَّص، د.صلاح فضل، عالم المعرفة، الكويت، ط١، ١٩٩٢م.
٨. البَلاغةُ العَربيّة قِراءةُ القِراءةِ، د.أحمد يوسف علي، ناشرون الآن وموزّعون، الأردن، ط١.
٩. البلاغة والنهضة، مشاريع بناء بلاغة جديدة، محمد مشبال، محمد حسانين، دار الرافدين للطباعةِ والنشر، ط١، ٢٠٢١م.
١٠. البَلاغة والحِجَاج، د.محمد الولي، منشورات فاليه، ط١، ٢٠٢٠م.
١١. البلاغة والأسلوب، د.مصطفى ناصف، المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٢م.
١٢. البلاغة والأسلوبية، د.محمد عبد المطلب، الشركة العالمية المصرية للنشر، مصر ،ط١.
١٣. البلاغة والإيديولوجيا، دراسة في أنواع الخِطاب، دار كنوز المعرفة العلمية،ط١، ٢٠١٥م.
١٤. البلاغة وأنواع الخِطاب، محمد مشبال، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠١٧م.
١٥. البيان والتّبيين،أبو عثمان عمرو بن بحرالجّاحِظ، تح: عبد السلام محمد هارون،مكتبة الخانجي.
١٦. ترويض النص، دراسة للتحليل النصي في النقد المعاصر، حاتم الصكّر، الهيئة المصرية للكتاب، د.ط، ١٩٩٨م.
١٧. توظيفُ أدواتِ البَلاغةِ في النّصّ المُعاصر، د.إبراهيم بن منصور التركي، النادي الأدبي، الرياض، ط١، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م.
١٨. الرُّؤى المُقَنّعة، كمال أبو ديب، دراسات أدبيّة، ط١، ١٩٩١م.
١٩. الغَائِبُ في الدّراسات البلاغيّة بينَ الواقعِ والمأمول، أ.د.محمد أبو موسى، القاهرة- مصر.
٢٠. في البلاغة العربية والأسلوبيات اللّسانية، د.سعد مصلوح، مكتبة الكويت الوطنية، ط١.
٢١. في فلسفة البلاغة، عبد الحق دادي، دار كنوز المعرفة،ط١، ٢٠١١م.

٢٢. لسانُ العَربِ، للعلّامة ابن منظور، دار صادر،بيروت،ط٣، ١٤١٤هـ.
٢٣. اللغةُ والبلاغة والميلاد الجديد، د.مصطفى ناصف، القاهرة، دار سعاد الصباح، ط١.
٢٤. مجهولُ البَيان، د.محمد مفتاح، دار طوبقال،ط١، ١٩٩٠م.
٢٥. المُعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية،مصر،ط٤، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.
٢٦. مِن تجلّيات الخطاب البلاغيّ، حمادي صمود، دار قرطاج للنشرِ والتّوزيع، ط١، ١٩٩٩م.
٢٧. نظريةُ البلاغة، متابعة لجماليات الأسلبة العربية، د.عبد الملك مُرتاض، هيئة أبو ظبي للثقافة.
٢٨. نظريات معاصرة، د.جابر عصفور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د.ط)، ١٩٩٨م.
٢٩. الوجهُ الغائب، مصطفى ناصف، الهيئة المصرية العامة للكتاب, ١٩٩٣م.
٣٠. الوجه والقَفَا في تَلازُم التُّراث والحَداثة، حمادي صمود، الدار التونسية، تونس، ط١، ١٩٨٨م.

– ثَانِيّاً : الدَّوريّات والمَجَلّات العِلمِيّة :

١. الأنساقُ والبنية، كمال أبو ديب، مجلة فصول، مج١، العدد الرابع، يوليو ١٩٨١م.
٢. بلاغةُ المقموعينَ ضمنَ المجازِ والتمثيلِ في العصورِ الوسطى، د.جابر عصفور، مجلة ألف، دار قرطبة للطباعة والنشر، البيضاء، ط٢، ١٩٩٣م.
٣. بنيةُ الخطابِ البلاغيّ وسلطةُ النصّ الغائب، القراءةُ بالمماثلةِ، د.أحمد يوسف، دراسات أدبية ولسانية، العدد السابع، ١٩٩٢م.
٤. البلاغة العربيّة بلاغةُ وجوه أم بلاغةُ خِطاب، د.حمادي صمود، حوليات الجامعة التونسية، جامعة منوبة، كلية الآداب، العدد٥٧، ٢٠١٢م.
٥. البلاغة والإيديولوجيا، بحث في العلاقة الملتبسة بينَ المعرفةِ البلاغية والمطالِب الإيديولوجية، د.مصطفى الغرافي، مجلة دراسات لسانية حديثة، العدد١٦، ٢٠٢٠م.
٦. مرجعيات التفكير النقدي العربي الحديث، بشير إبرير، مجلة علامات النقدية، ج٤٩، م١٣، سبتمبر،٢٠٠٣م.
٧. الوجهُ الآخر للبَلاغةِ العَربية، مُراجعة في الأُصولِ والمُنطلقات ،أ.د.حبيب مونسي، مجلة الوارث، ع٣٦، ٢٠١١م.